إبداعات جديدة

٦

الـــزوق

أحمد زكريا الأمير

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

رئيس مجلس الإدارة
د. حسن أبو طالب

سلسلة إبداعات جديدة

اسم الكتاب: الزوق
اسم المؤلف: أحمد زكريا الأمير
رقم الإيداع: ٢٠١٥/٣٩٧٤
تدمك: ٢ – ٨١٧٧ – ٠٢ – ٩٧٧ – ٩٧٨
مقاس الكتاب: ١٣,٥ × ١٩,٥ سم
عدد الصفحات: ١٨٤ صفحة
القاهرة: الطبعة الأولى ٢٠١٥

١/٢٠١٣/١٨٨

تم التنفيذ فى مطابع دار المعارف
– ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة –
جمهورية مصر العربية

لا يجوز استنساخ أى جزء من هذا الكتاب بأى طريقة كانت
إلا بعد الحصول على تصريح كتابى من دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

إهـــــداء

إلى جدى.. هذا ما أقدر أن أهديه إليك.. علمتنى دون أن أراك كثيرا.. إن الإنسان بلا قلب ذكرى إنسان

شخصيات القصة

حسن بن عبد الله العطار... حسن الزوق.... الراوى
محمود العطار... أخو حسن.. شيخ أزهرى
إبراهيم العطار... أخو حسن و صاحب البلاء
رقية ابنة منصور بك... زوجة حسن الزوق
فتحية.... أم حسن الزوق وإخوته
مالك... عم حسن الزوق
منصور بك الدفتردار.. حما حسن وأبو رقية
شويكار هانم الكبرى... زوجة منصور بك الأولى تركية
زينب... زوجة منصور بك الثانية.. مصرية.. وأم رقية
شويكار هانم الصغرى... أخت رقية الكبيرة
شويكار... ابنة حسن الزوق الكبرى
فيروز... ابنة حسن الزوق الوسطى
فطيمة.. ابنة حسن الزوق الصغرى
إبراهيم الصغير.. ابن حسن الزوق مات صغيرا
صفية... زوجة مالك
ياسمين... ابنة مالك وزوجة محمود العطار
الجدة.. اسمها ياسمين.. أم عبد الله ومالك.. وجدة حسن
شاكر.. صديق حسن.. حداد
حسونة.. ابن مالك المدلل.. وأخو ياسمين

عبد الله.. زوج شويكار ابنة حسن
على... زوج فيروز ابنة حسن
إبراهيم القماش.. زوج فطيمة ابنة حسن
على بك الانكشارى.. زوج شويكار هانم الصغرى
الراهب سمعان.. صديق عبد الله أبو حسن
الشيخ مسعود.. شيخ حسن وأستاذه فى الأزهر
الشيخ عبد الغفار القاضى.. أستاذ إبراهيم العطار..

* * *

(١)

تركـت البيت هربا من نظـرات أمى الحزينة التـى أجدها مدفونة فى عينها كلما نظرت إلى.. تشـعرنى بالبـؤس فيضيق صدرى.. وكأنها أشـعلت النار فى أنفاسـى عن غير قصد.. أعلم أنها لا تريد أن تجرح مشـاعرى.. فقد طال مكوثـى فى البيت.. فمنـذ تخرجى فى الجامعة وأنا أبحث عن وظيفة كأى شـاب مصرى فى عصرنا الحالى.. لكن دون جدوى.. حقيقة الأمر أنى مللت من كل شىء.. وأحداث البلاد فى تلك الفترة.. لا تشـجع على أى شـىء.. فمنذ نشوب الثورة المصرية واندلاع أحداثهـا.. التى شـاركت فيها على نحو اندفاعـى وجنونى.. أدركت بعدهـا أن الحلم أبعد مما أعتقد.. على الرغم بإيمانى الشـديد بالوصول علـى أية حال ومهما طال الزمان.. ولكـن آثرت أن ألجأ لهواية قديمة فى البحث عن الآثار وخاصة الإسـلامية فى العصور التى بالكاد يعرف جيلى أسماءها.. فكان ملاذى أن أجلس بين تلك الآثار.. وأتساءل كيف عـاش أهل مصر فى تلك العصور السـابقة.. وآخذ فـى يدى بعضًا من كتب التاريخ التى أعشق قراءتها حتى لا تكاد يدى تفرغ منها.. أعيش بـين صفحات التاريخ العربى.. حياة أخرى بعيدة عن تلك الواقعة التى كادت تـودى بى إلى الجنـون.. فمن يحيا فى التاريخ يدرك أن الوصول ليس مسـتحيلا.. وفى يوم قرأت فى الجريدة أحد التحقيقات الصحفية عن رجل عاش فى عصر من العصور الإسـلامية لا نعرف عنه الكثير أو مـن أى أصل من الأصول هو؟ وكيف وصـل إلى القاهرة؟.. له مقام عند

بـاب الفتوح مدفون فيه وكتب عليه «مقام العارف باللّه سـيدى حسـن الزوق».. أعجبتنى قصة الرجل على الرغم من أن المعلومات عنه معروفة لـدى القليل من أهل مصر فى عصرنا الحالى.. قررت من فورى أن أقوم برحلة لمقام هذا الرجل.. حيث أبحث فيه عن روح المكان.. وأتنسم عبق التاريـخ فى تلك المنطقة الشـعبية من القاهـرة القديمة.. ربما أجد فيها شيئا يلهينى...

جلسـت تلك الليلة ساهرا أبحث عن هذا الرجل وقصته التى طمرها التاريـخ.. وأبحث بـين صفحات المقريزى عن هـذا الرجل المدفون فى منطقـة غريبـة.. فالمعروف منذ الفتح الإسـلامى أن أهـل مصر يدفنون موتاهم بالقرافة عند سفح المقطم أو ما يعرف بالقرافة الكبرى والصغرى.. لمَ يدفن هذا الرجل فى موقع التفرد هذا عند باب الفتوح؟! لم لا يكون عَنـد باب النصر مثلا أو زويلة؟!.. شـىء جاب فـى ذهنى ربما عاش هذا الرجل فى العهد الفاطمى الشـيعى.. خاصة أن القبر مدهون باللون الأخضر هكذا يبدو فى الصور على الإنترنت.. ليس لدى ما يثبت ذلك.. فقلت فى نفسـى ربما عـاش فى العصر المملوكى.. حين اتسـمت مصر بالعشوائية.. لا أعلم حتى الآن عن هذا الرجل أكثر من أنه كان طيبا تقيا يحبه الناس ويلجأون إليه فى شـدتهم.. وأعرف أصل المقولة الشـعبية التى مازالت على ألسـنة المصريين إلى اليوم.. حينما يتعارك الناس فيما بينهـم «الزوق مخرجش من مصـر».. نعم لم يخرج من مصر هذا الرجل بل مات على أعتابها كمدا.. لما لاقاه من أهلها من جهل وفقر وصراعات لا تنتهى أبدا.. حقيقة الأمر تثيرنى تلك الشـخصية.. خاصة فى عصر

تلاشـت فيه القيم.. وأصبح الدين مجرد لحية وشـاكلة.. ولسـان حال يكذب الهيئـة.. أحب التاريخ.. أو أحب أن ألجأ إليه فأجد ما أفتقده فى حياتى.. وبالرغم من إيمانى بمقولة الفيلسوف فولتير «ما نتعلمه من التاريخ أن لا أحد يتعلم من التاريخ».. بيد أننى أحاول جاهدا أن أسبح ضد هذه الفكرة و لو على المسـتوى الشـخصى.. أحيانا يأخذنى الفكر بعيـدا فـى زمن آخر فى عالم آخر قديم.. فأعـرف طعم العزة والنصر.. الفرح والحزن.. الضيق والفرج.. هكذا يحيا أكثر شباب مصر الآن حياة افتراضية.. لا تخلو من الخيال.. فلقد أصبح الواقع كابوسـا والحلم فيه صعب المنال..

فـى الصباح الباكر خرجت من فـورى إلى باب الفتوح.. أحد أبواب القاهـرة المعزية القديمة.. ذكرت بعض مـن كتب التاريخ أن هذا الباب سمى بهذا الاسم ليخرج منه الجند للمعارك فتكون بشرى بالفتح والنصر.. لذلك فى رحلة العودة يدخلون من باب النصر.. أما باب زويلة فسـمى بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة زويلة وهى قبيلة من المغاربة جاءت إلى القاهرة المعزية مع جوهـر الصقلى عبد المعز الفاطمى.. أعرف عن بداية القاهرة ونشأتها وتسميتها.. فقد شغلنى الأمر لفترة من الزمن فبحثت عنه كثيرا وسـألت عنه الكثير.. بنيت القاهرة المعزية لتكـون حصنا مانعا جديدا بين الجيزة والفسطاط القديمة.. وتعددت حواريها (لفظ حارة أطلق على الحى السكنى فى تلك الفترة).. سميت كل حارة باسم أهلها من الجند ممن أتـوا فى جيش المعز إلى مصر.. حارة زويلـة.. حارة الروم.. حارة كتامة (نسـبة إلى قبيلة من المغرب).. حارة البرقية (نسـبة إلى برقة)..

حارة الأتراك (فى الجهة المقابلة للجامع الأزهر).. حارة اليانسة (نسبة إلى صقليــة ممن أتوا مع جوهر الصقلى).. هكذا تســمّت حارات القاهرة المعزية.. وبدأت تُرْسَــمُ أحياؤها (حاراتها) بحيث تكون عاصمة جديدة لدولــة جديــدة.. فى نفس الوقــت أراد المعز الفاطمى أن يحمى نفســه ودولتــه من خطر القرامطــة الذين أصبح قتالهم حتميًّا.. وأيضا من خطر المصريين أنفســهم من أهل الســنة الذين كرهوا بدع الشيعة وسباباتهم.. لذلك أحيطت القاهرة بســور محصن بنى فى أول أمره بالطوب اللبن ثم تبــدل إلى تلك الهيئــة التى هو عليها الآن.. أما عن التســمية فقد ذكر المقريــزى عدة روايات أكثرها تعقلا أن جوهر الصقلى سماها فى بدايتها المنصوريــة حتى جاء المعز إلى مصر فغيرها إلى القاهرة لتكون قاهرة لبنى العبــاس (الدولة العباســية).. ولكنى قرأت فى كتاب للدكتور يوســف زيدان وقد ذكر أن تلك المنطقة الفارغة بين الفسطاط والجيزة كان اسمها (كاهــيرا) أو (كاهى رع) بالنطق المصرى الفرعونى.. على كل حال هكذا أصبح اسمها...

وصلــت إلى بــاب الفتوح.. تعجبت كثيرا مما رأيتــه من العامة غير عابئين بهذا الأثر العظيم.. ولا تلك النقوش والبنية الرائعة.. بل وجدت حمــارًا ربطه صاحبه إلى أحد الأركان وتركه يأكل فى برســيم أخضر.. وآخر ركن ســيارته إلى جوار الباب.. شعرت بضيق شديد فى صدرى.. لكنى التمست العذر لهم فى نهاية الأمر..

ها هو الضريح.. ســبع عتبــات لتصل إليه نازلا.. قــد دهن باللون الأخضر.. وحمدا لله تم تجديده.. فصوره على الإنترنت مزرية.. أخذت

أجــوب المكان وأتلمس عبــق التاريخ.. أنظر إلى المعمار وأتذكر أنى كنت مهندسا فى يوم ما.. تفحصت المكان بعناية ودقة شديدة أنستنى همى.. أنظر إلى مقام هذا الرجل الذى خلد اسمه إلى يومنا هذا.. وأتساءل كيف كان يبــدو هــذا التقى؟.. هل كان يربى لحية شــعثاء ويرتدى الجلباب الصينى القصير.. هل كان يمشــى ممســكا مســبحة فى يديه.. أم كان يحرمها.. هل كان يملك سيارة مرسيدس ويعيش فى قصر.. أم كان رجلا بسيطا.. ما تلك التساؤلات؟.. هل فقدت عقلى؟.. ربما.. لا أستبعد ذلك على أية حال.. تمنيت من كل قلبى لو رأيت هذا الرجل..

جاء وقت الرحيل.. انتهت الرحلة كما كان يقول أستاذ المدرسة فى نهاية رحلاتنا المدرســية التى لم تتعــد حديقة الحيوان بالجيزة «فينش يــا ولاد».. فلــدى الآن ما أقوم به.. عندى وقفــة احتجاجية أمام نقابة المهندسين ربما يشعر بنا أحد.. قال لى أحد أساتذتى فى الجامعة.. إذا أردت أن تعرف قيمة دولة ما بين الأمم.. فانظر إلى حال مهندســيها.. أضحــك كلما أذكر تلك الكلمــات فحالنا مزرٍ إلى درجــة الذروة.. التى تنقطع فيها الكهرباء دوما فى عصر الإخوان..

بينمــا أهم فى الذهاب إذ برجل يتبعنــى.. من هذا الرجل؟.. أحقا يتبعنى؟؟.. لم أنم ليلة البارحة جيدا.. هل هذاااا..... ولكن هذا الرجل لا يبدو عليه أنه مخبر.. اعتدت المراقبة حتى صارت جزءًا من شكوكى.. نظرت إلى ورائى فإذا به مازال يتبعنى.. علىّ أن أســتدعى احترافى فى تشــتيت المخبرين.. أقحمت نفســى فى زحام النــاس.. وبدأت أدخل الشــوارع المتفرعة.. أســرع من خطاى و لا أنظر خلفى حتى لا يشــك

أنــى كشــفت مراقبته.. هل هذا ما تغير فى بلادى بعد الثورة أســلوب المراقبة!!.. ها هو أتوبيس رمسيس.. لن يستطيع اللحاق بى.. حشرت نفســى فى زحام الأتوبيس بين ســارقيه ومتحرشيه ثم إلى المترو.. حتى ينتهى هذا الشــك الباقى بالمراقبة.. وصلت أخيرا إلى نقابة المهندســين ٣٠ شارع رمسيس.. نزلت من الأتوبيس فوجدت الرجل أمامى.. ورأيته عن مقربة للمرة الأولى..

رجل تبدو عليه الهيبة يكســو وجهــه الوقار.. أبيض اللون بحمرة شــامية.. عيناه عســليتان حزينتان.. تملأ وجهــه التجاعيد.. يظهر عليــه أن عمره فى العقد الســادس أو الســابع من العمــر.. بالرغم من هذه الســن الطاعنة فإن الحيوية ظاهرة عليه والنشــاط.. يميل جسده للامتلاء.. جبهته العريضة يظهر فيها علامات الصلاح.. لحيته بيضاء قد تدلت كسلاسل الفضة.. ناعمة منظمة.. لكن رداءه الذى يرتديه غير اعتيادى على نظرى.. هو قريب إلى حد ما من اللباس الأزهرى بعمامته الشهيرة.. ولكن لا.. ليس هو.. فقفطانه من الصوف غالب على مظهره أنه صنع باليد.. أو أنه قديم الطراز إلى حد لا أعرفه.. أشــبه بالطراز المملوكى القديم...

نظراته إلى تحيرنى.. ورؤيته عن مقربة زادت من حيرتى.. واحتمال أنه مخبر أصبــح مدعاة للضحك.. لو ارتدى المخبرون هذا الزى لانتهى ما بقــى فى خزانة الدولة من نقود.. اطمأن قلبى إلى حد بعيد.. جعلنى آخذ أنفاســى التى كادت تنقطع وانخفضت نسبة الادرينالين الذى كاد يفتــك بى.. قــررت أن أهملــه و لا أبادره بالحديث حتــى يفصح عما

يريده.. دخلت وسط عشرات الزملاء ممن احتشدوا أمام النقابة.. وقررت أن أكون بينهم حتى لا يرانى..

مـا إن دخلت بينهم حتـى وجدت صديقى العزيز محمود حسـين بينهـم يتحدث معهم.. بحماس شـديد وبـرودة غير معهـودة عليه.. فمحمـود إخوانى متعصب إلى درجة عمياء.. أذكر أنه تشـاجر مع أحد دكاترة الكلية حتى كاد يضربه بسبب دعابة ألقاها بين يدى المحاضرة عن الإخوان.. لم يقصد الرجل سوءا ولكن هكذا تصير الأمور مع محمود دائمـا.. على الرغم من معرفتى بانتمائه ومعرفته بانتمائى الناصرى فإن زمالة الجامعة تُصيّر الأمور على غير هذا الخلاف الأيديولوجى..

سـلمت على محمـود وقاطعت حديثه فلم أره منذ ثلاث سـنوات.. ثم اسـتطرد الحديث فـكان يقول إن النقابة غير مسـئولة عما يواجهه المهندسون فى حياتهم من ضيق.. وهذا ما ينافى ما كان يقوله حتى آخر يوم رأيته فيه فى الجامعة.. فى البداية لم أرد أن أحرجه أمام الزملاء.. ولكنه تمادى حتى وصل لأسطوانته المعهودة بأستاذية العالم والخلافة.. كان لابد لى أن أوقفه.. فقلت:

– إن كنـت تدعو للخلافة فعليك أن تدعو للخليفة أولا.. هل تعرف خليفة يصلح للخلافة من آل البيت الآن.. أو من قريش حتى؟!!

نظر إلىّ بدهشة وقال:

– لا ولكن...

قلت مقاطعا:

– أنا

– أنت؟؟؟!!

– نعم أنا.. أنا قرشى ومن آل البيت..

كانــت تلك هى المرة الأولى التى أخبر فيها أحدا عن هذا الســر الذى نحرص أن نكتمه عن الناس فنريح ونستريح.. أدهش الأمر صديقى محمود إلى حد بعيد حتى أعجزه الأمر عن الكلام.. كذلك كان حال الحضور من الزملاء أمام النقابة.. أكملت حديثى فى وسط هذا الصمت العارم..

– إن كنت تدعو بالخلافة.. فسأطالب بحقى فيها.. التاريخ لا يفرغ من الأدعياء..

ابتسم محمود ظنا منه أننى أمزح كعادتى وقال:

وتكون أول خليفة ناصرى فى التاريخ الإنسانى..

ضحكت وقلت فى نفســى كم يصبح الأمر مدعاة للسخرية.. وجدت أن الأمر قد بعد تماما عما جئنا من أجله.. إننا نطالب بحقنا كمهندسين لا أكثر ولكنى لم أكن البادى فى الشــطط. ولكن كانت تلك حيلة ذكية من محمود حســين حتى يضيــع أصل الأمر ويفرغ محتــوى الموضوع.. لم أكــن الوحيد المدرك لهذه الحيلة ولكن كثيرا من الزملاء والزميلات.. فنحــن الآن فــى مجتمع لا يصلح معه هذا النوع مــن اللعب.. ولا أيضا الرشــوة الرخيصــة تمنعهم من الفهــم.. فإدراك الحقائق شــىء تعلمناه لسنوات فى الجامعة.. فهو أصل التفكير العلمى...

قال أحد الحضور مقاطعا الضحك والهسهسات وصوت السيارات المارة:

لقد بعدنا عن الأمر.. ومن الواضح أن الأخ إخوانى يناصر القائمين على النقابة الآن.. إن لم تكن النقابة هى صوت أهلها فما عساها أن تكون؟!

ثـم أخذ فى الهتاف ونردد خلفه بحماسـة.. وانتهى الأمر فى آخر اليوم كعادته بلا جدوى.. ورجع كل منا بخفى حنين..

رجعـت إلى البيـت متعبا.. لآخذ قسـطا طويلا مـن الراحة تنتهى بصـوت أمى توقظنى.. قد أذن للمغـرب.. قم من نومك هذا.. ألا تفعل شـيئا غـير النوم؟!.. عـادة لا أرد على هذا التعليـق.. ولكن هذه المرة خرجت عن لسانى كلمات غلبتنى أو لعلنى لم أفق.. فقلت:

– وهل وجدت شيئا أصنعه وتقاعست؟

نظـرت إلى أمـى بنظرة حنونـة وكأنها تعتذر عـن قولتها.. وقالت بصوت رقيق:

– تهون إن شاء الله يا بنى.. سيأتى قريبا الفرج..

فى الحقيقة لم تكن تلك الكلمات تخرق مسامعى للمرة الأولى.. ولكن اعتـادت قولها كمـا اعتدت سماعها منها منذ كنـت طفلا.. حتى إنى أحيانا أمل منها..

قمت من فراشـى إلى المرحاض.. صليت المغرب لأعاود جلستى على جهـاز الكمبيوتـر.. الذى أجلس أمامه طيلة اليـوم.. لا لأنى مثل بقية الشـباب.. أتصـف بعدم المسـئولية.. ولكن هربا من جلـد نظرات أبى إلىّ حينما أجلس بينهم أشـاهد التلفاز.. فهـى نظرات مختلطة ما بين الحنو والإشـفاق واللوم أحيانا.. فألجأ إلى عالمى الافتراضى الذى أعيش فيـه بعيدا عـن كل ما أكره.. خصوصا تلك العـروض التى تمطرنى من إخوانى.. فيقترح كل منهم اقتراحا لا يخلو من استغلالى.. فأخى الكبير يريد أن يفتح مطعمًا ليحسن دخله ويريدنى أن أكون مشرفا عليه.. برغم

أننـــى على يقين أنه لا يملك من المال ما يجعله يشـــترى بذلة جديدة.. ولكـــن هكـــذا يبدأ وابل الاقتراحات الذى لا ينتهـــى إلا بأن أقوم وأعود لعزلتى كالرهبان..

انقضت ساعات طويلة أمام الجهاز (الكمبيوتر) لا يقطعها إلا الضرورة بالخـــروج من الغرفـــة.. وها هو يؤذن الفجر.. أقوم إلى المســـجد لأصلى الفجـــر وأجتمـــع بمن بقى من أصحاب أمام المســـجد وقـــد يتطور الأمر فيكون هناك جولة فى شـــوارع الحى الذى أســـكنه.. ولا تنتهى حتى يبادر أحدنا بالذهاب.. فيتبعه الآخرون بشـــكل متتالٍ.. فيعود كل منا إلى بيته ومخدعه..

فى تلك الليلة أثناء وقوفنا المعتاد.. وجدت الرجل نفسه يقف بعيدا وكأنه ينتظرنى.. وينظر إلىّ على نحو غريب.. ملت على أحد أصحابى وقلت له:

– انظر إلى ذلك الرجل..

– أى رجل؟

– هذا الذى يقف هناك..

– لا أرى شيئا..

– هذا الذى يرتدى الجبة والقفطان القديم..

– ما بك أنت مريض؟؟

– لا لست مريضا.. متأكد أنت أنك لا ترى شيئا؟

– اذهب لتنام قليلا أنت متعب.. يبدو عليك أنك لم تنم منذ البارحة..

– لا.. سأنتظر معكم..

هكذا أنهيت الموقف حتى لا يظن أننى قد بدأت فى مراحل الجنون.. ولكن الرجل يقف فعلا أنا أراه بعينى.. لا ليست حالة انفصام.. أعرف الانفصام وقرأت عنه كثيرا.. أهو شبح مثل الذى ظهر فى هاملت!!.. ما الذى أقوله هذا.. بدأت أشك فى قوة عقلى..

تحول الأمر عندى لفضول جامح.. قررت أن أكون جريئا سأواجه هذا الرجل.. حتى لو وصل الأمر للاشتباك معه.. اقتربت منه رويدا رويدا.. أسمع نبضات قلبى ترتفع.. حتى صارت أشبه بالقرع على طبول الحرب.. حتى صرت بمقربة منه حيث يسمعنى جيدا..

* * *

(٢)

سـألته بصوت يرتجف.. وبدا على سوء الحال.. على غير الشجاعة التى كنت أحاول أن أظهرها..

– من أنت؟ ولماذا تتبعنى؟

– أنا رجل تعرف اسمه فقط.. وأنت من طلبت هذا..

– أنا.. ماذا طلبت؟

– ترانى..

– أراك؟؟!!

– أنا لا أعرفك.. وتلك هى المرة الأولى التى أراك فيها..

– نعم.. هى المرة الأولى..

مرت سيارة على مقربة منى.. أفسحت الطريق ولجأت إلى الرصيف.. أما هو فلا.. لم يتحرك شبرا من مكانه.. تعجبت كثيرا.. مرت السيارة وهـو واقف مكانه.. السـيارة مـرت من خلاله.. بدا وكأنه سـحاب.. أو دخان تراكم ليكون تلك الصورة.. لا أؤمن بالأشباح.. لا يعيها عقلى.. أنا مهندس أو كنت كذلك فى يوم من الأيام.. لا أعرف تلك الخرافات.. ولكن علىّ أن أسأله..

– هل أنت شبح..

– ضحك بصوت ساخر عالٍ وقال:

– وما نوع تلك الأشباح التى تأتى فى صلاة الفجر؟!

– فاصدقنى القول إذًا.. من أنت؟.. ماذا تريد؟؟.. لم تتبعنى؟؟

– أما عن الأول فأنا الفقير إلى الله حسن الزوق..

– حسن الزوق.. الأسم ليس غريبًا.. حسن الزوق صاحب المقام؟؟!!..

قلتها وقد غلبنى الابتسام وبدأ الخوف ينجلى.. وبدأ القلب يعاود أدراجه إلى مكانه بعد ما كاد يخلع منه..

– نعم أنا عبد الله حسن الزوق.. ولا أتبعك فى الحقيقة.. بينما تلاحقنى أنت بخيالك.. أما عن ماذا أريد.. فالأولى بالسؤال أنت..

– أنا.. أنا... اعذرنى لا أتفهم الأمر.. هل أنت شبح إذًا؟..

– هه ثانية.. يا بنى لله فى ملكه شئون لا يعلمها إلا هو.. (قالها وهو يبتسم)

أعرف كثيرا عن الصوفية.. وعن روحها.. غير أنى أنكر على أهلها التمسح بالأضرحة.. ولى معها باع طويل.. عرفت من أهلها الكثير من أناس على علم ودين حقيقى.. وفهمت منهم أن التمسح هذا بدعة البسطاء وفولكولور شعبى.. ليس له علاقة بالصوفية ولا أهلها.. وعلمت عن شطحاتها التى لا يعلمها أحد من العامة من تلاقى الروح فى الأزل.. وقد ينكرها الناس عن جهل بها أو استخفاف.. أنا عن نفسى لم أخبرها من قبل.. ولا أعرف أكانت حقيقية أم أن تلاقى الروح فى الأزل تعبير مجازى مثلا..

ساد صمتى لحظات حاولت فيها استيعاب الأمر.. تداركت نفسى.. فادركت أنها فرصة لى على أية حال أن أعرف عن هذا الرجل ما لا يعرفه أحد غيرى.. سألته أكثر الأسئلة إلحاحا على ذهنى..

– هل الزوق هذا اسمك فعلا.. أم أنه لقب ما؟

– الزوق هذا اسم يرجع إلى جدى الكبير.. الشيخ على العطار.. جاء مــن قرية الزوق عند نهــر الأردن.. لم يكن هذا اســم القرية.. فقد كان اسمها السوق.. ولكن تبدل ألسنة الناس وتوافد غير العرب إليها.. حور الاسم إلى الزوق.. كانت تلك القرية الصغيرة بمثابة دار تجارة كبيرة فى الشــام.. فيها كل أنواع العطارة وزيت الزيتون وعســل النحل الجبلى.. فهى فى عصرها دار للأدوية والتطبيب.. (تأكدت بعدها أن القرية كانت موجودة فعلا حتى هدمها الاحتلال الإسرائيلى لفلسطين.. وكانت القرية مقسومة إلى جزئين الزوق التحتانى والزوق الجوانى)..

نــزل جدى إلى مصــر بعدما طغى القرامطة على الشــام.. فهؤلاء القوم لم تكن لهم حرمة ولا يقفون أمام شــىء أبدا.. نهبوا الأرض والناس وأتوا على الأخضر واليابس.. حتى وصل الأمر لسرقة الحجر الأسود من الكعبة.. حكى لى جدى أن الحج ظل متوقفا عشرين عاما أو اثنين وعشرين..

– وأين ذهبوا به؟ (سألت متلهفا)

– وضع فــى بلاد البحرين.. حيث قويت شــوكتهم فيها وكانت لهم ملجًأ..

– وأنت من أى العصور جئت؟؟

– من عصر حكم فيه ولاد الناس.. ممن لا نعرف لهم أصلا ولا نسبا ولا أبــا.. فى عهد سمى الحاكم المملوكى شــيخ البلــد (الدولة المملوكية المتأخرة بعد الســيطرة العثمانية فى عهد سليم الأول على مصر والقضاء على المماليك فى معارك عدة أشهرها مرج دابق)..

– المماليك..

– ومن غيرهم؟ (قالها بمرارة شديدة)..

– توقعــت هذا.. عندما عرفت أنك مت كمدا.. تعرف رجع المماليك ثانية فى عصرنا ولكن على شاكلة أخرى.. (قلتها مازحا)..

– وهل هم من الجراكسة أم نهر الفولجا..

– لا.. من المقطم..

لم يفهم بالطبع تلك المزحة.. ولكن بدا على وجهه دهشــة غريبة ثم نطق بصوت حزين..

– وهل صرتم تستعبدون الناس من بنى جلدتكم؟

اغرورقت عيناى بالدموع من الضحك.. حتى ظن صاحب المقام أننى أهزأ به.. أو شك فى الأمر.. حاولت تدارك الموقف والإسراع فى الخروج منه (الموقف) ..

– لا يا شــيخ حســن.. ليس الأمر على هذا النحو.. ولكن بالمناسبة هــل تقطم المقطم حقا.. هل تحرك من مكانه بمعرفة أحد الصالحين من القبط فى العصر الفاطمى..

أى خبــل تدعيه يا بنى.. لم أعش فى العصر الفاطمى.. ولكن تدافنا فى القرافة هناك أبا عن جد.. وأعلم أن منذ عهد عمرو بن العاص رضى الله عنه يدفن الخلق هناك وهو مدفون هناك.. ولم نسمع يوما أن الجبل يتحرك.. قل لى يا بنى هل فقدتم العقول فى عصركم هذا؟!

– حقيقة الأمر يا سيدى أن المخ عندنا لا يستخدم إلا فى الطعام..

– الطعام؟؟.. أتأكلون لحم البشر يا بنى..

قهقهتى ألفتت نظر من مر فى الشارع.. فقد بدأت الناس فى الخروج من منازلهم.. يرون شابا يقف وحيدا فى الشارع يحدث نفسه ويضحك.. هكذا بدأت إشاعة الجنون التى اجتاحت الحى بعدها.. فقلت:

– يا شيخ حسن.. تعال معى إلى البيت مادام لا يراك غيرى..

صعدنا إلى شقة والدى.. والتى طالت استضافتى فيها.. حتى صرت ضيفا ثقيلا.. والآن أنا ضيف ثقيل ومجنون.. رحماك يا إلهى.. لم يكن هنـاك من متيقـظ غير أمى تصلى الفجر.. بهدوء شـديد دخلت غرفتى وأغلقت الباب مسـرعا.. قلت فى نفسـى هذا وقتى كى أدون ما يقوله الشـيخ.. مسـرعا أحضرت قلما وأوراقًا.. حتى يبـدأ الحديث المثمر.. وجدت الشـيخ واقفا أمام الكمبيوتر.. ينظر إليه بتعجب شـديد.. برغم الاندهاش من كل شـىء يراه لم يسـأل عن شىء غير تلك المرة أشار إلى الكمبيوتر وقال:

– ما هذا؟

– هذا عالمى الخاص.. يسـمونه الكمبيوتر.. تسـتطيع من خلاله أن تصـل إلى أى شـىء تريده.. من دون إزعـاج.. أو تطفل.. دعنا لا نضع الوقـت.. أخبرنـى عن حياتك ما تريـد أن تقوله عنـك أو عن مصر.. أو المماليك.. سـأكتب سـيرتك كما تقول وبعنـوان «ولى اللّه يتحدث».. أو العارف باللّه يحكى مثلا (كان هذا قولى بعدما قررت ألا أقاطعه أبدا.. كم كانت قاصر الطموح!).

– اسمع يا بنى سأحكى لك ما تريده عن حياتى.. وعليك أن تحكم أنت هل كنت وليا أم مجرد إنسـان فهم معنى أن يكون إنسانًا فى زمن

نزع من الإنسان كيانه والرحمة من قلبه... اسمى حسن الزوق ولدت فى القاهرة سنة ١١١٨ من الهجرة النبوية الشريفة.. فأنا مصرى وكذلك أبى وجدى إلى جدى الكبير العطار المهاجر إلى الفسطاط منذ ٣٦٤ هـ.. هربا من بطش القرامطة كما ذكرت...

عملت عطارا ورثت تلك المهنة والتطبيب كابرا عن كابر.. مهنة أبى وأجدادى.. وقد برعت فيها حتى إن الناس كانوا يسافرون أياما ليصلوا إلىّ للتطبيب.. ذكرت لى أمى يوم ولدت لم يجدوا قماشًا حتى يضعونى فيه.. غير كفن أبى الذى اشتراه وجعله فى البيت.. فجئت إلى الدنيا بكفن وخرجت منها بكفن (قال ذلك وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة غريبة)... (ذكر الجبرتى فى يومياته أن فى ذلك العام انقطعت التجارة بين مصر والهند وشح القماش)..

سكنا القاهرة فى الحى الحسينى بعد حريق الفسطاط فى آخر العهد الفاطمى حيث أتت النار على بيت الزوق الكبير الذى عرف بهذا الاسم.. ظلت النار مشتعلة فيها واحدًا وخمسين يوما.. بنى جدى حانوتا آخر غير الذى حرق فى الفسطاط عند باب الفتوح .. و عرف هذا الحانوت باسم الزوق العطار.. رحلت عائلة الزوق الكبير عائدة إلى الشام بعد هذا الحريق ولم يبق غير جدى عبد الرحيم الذى بنى بيتا آخر فى القاهرة وأبى أن يترك مصر أبدا.. عمل فى العطارة وكذلك أولاده من بعده.. حتى أتى الطاعون على مصر من بعد فقر شديد وثورة عارمة فى البلاد أيام المماليك.. فارتحل بقية أحفاد عبد الرحمن إلى المغرب.. وهكذا لم يبق فى مصر غير جدى حسن الكبير.. وكان له ولدان مالك

وأبى عبد الله.. مات جدى قبل أن أولد بسنوات.. مات وهو يحج ودفن فى مدينة رسول الله..

ورث أبى عن جدى مهنة العطارة.. أما عمى مالك فآثر أن يعمل نجارا فكان لا يحب العطارة.. ويكره ريحها.. كان يقول هذا دوما غير أن للأمر سببا آخر خفيًا.. فقد كان يخشى أن يزور أبى فى الحانوت حتى...

لم يكن إخوتى يعملون بالعطارة معى فأخى محمود كان عالما بالأزهر الشريف يدرس الشريعة.. وكان له عامود ولكن لم يعرف باسم الزوق.. وكذلك أخى إبراهيم الذى كان نجارا فى بداية أمره على الخلاف منا.. فلم يسم بالزوق غيرى.. فأنا بمثابة حامل راية عائلة الزوق التى فنيت من بعدى.. واندثر اسمها.. فلم يكتب الله بالولد الذى يحمل اسمى واسم الزوق من بعدى.. رزقنى الله بثلاث بنات أسمتهن أمهن كما كانت تحب دائما.. شويكار الكبرى.. فيروز وفطيمة.. نعم هكذا اختارت رقية زوجتى أسماءهن (هز رأسه حزنا وقال) رحمها الله...

– هل كانت تركية؟؟..

– نعم.. (مبتسما).. من أصل تركستانى.. لا تعجل سأحكى لك فيما بعد عنها..

– هل تذكر أحداثا كانت فى صغرك عن المماليك؟

– يا بنى، الأحداث متلاحقة وللمماليك سجال طويل فى الصراع.. لا يمر شهر إلا ونسمع عنهم من خبر.. والناس والعوام حيارى معهم.. و هم لا يكلون أبدا من صراعهم.. كثيرا ما سمعت من أبى عن

مجاعـــات اجتاحت البلاد.. ومات علـــى إثرها العباد.. حتى سمعت يومـــا من أبى أنه قـــد أتت على مصر محن عضـــال حتى صار الناس يســـتأجرون أربعة رجال أشداء لحراســـة رغيف الخبز.. وأنا لا أذكر كثيرا من أحداث صغرى..

أذكـــر مثلا يوم تقلد إبراهيم بك أبو شـــنب الكبـــير.. يومها احتفل الناس كعادتهم بالأمراء الجدد وأغدق عليهم من العطايا.. يومها أعطانى أحد الجنود من ولاد الناس نصف فضة فى يدى.. ظللت محتفظا بذاك النصف حتى مات إبراهيم بك بعد عام (كان ذلك ١١٢٩ – ١١٣٠هـ).. فأخذت النصف واشتريت به كعكة بالسكر...

ويوم قطع رأس على باشـــا المظلوم وأرســـل للباب العالى مســـلوخا.. ودفن فى قبر أبى جعفر الطحاوى بالقرافة يومها أخذنى أبى معه لنصلى عليه.. وســـألته يومها وأين رأس الرجل يا أبى.. قال فى إســـلامبول.. قلت وكيف يدفن من غير رأس.. نظر إلى نظرة شديدة وقال لى أسكت.. وما أن رجعنا للبيت إذ بمنادٍ ينادى فى الناس «من آوى محمد جركس يشـــنق على باب داره».. يومها خشـــى أبى علينا وأغلق الباب ومنعنى وإخوتـــى من الخروج.. لم أكن أتفهم حينها ما الذى يحدث ومن محمد جركس هذا.. (انظر الجبرتى)..

(قام من مكانه الجالس عليه وقام ينظر من الشرفة من خلف ستار قد أســـدل عليه ثم التفت إلىّ وقال) وأذكر يوم مات جدى لأمى.. كنت فى الأزهر جالسا لأحد أعمدته أستمع إلى الشيخ.. دخل علينا أخى الصغير إبراهيـــم الذى أكبره بخمســـة أعوام فى هدوء قـــرب من أذنى وقال أبى

يريدك فى البيت حالا.. لم أتوقع وقتها خيرا.. فأبى كثيرا ما يحذرنى من ترك مجلس للعلم.. شعرت فى قلبى بالخيفة الشديدة.. ارتجف قلبى يومها أدركت معنى الموت لأول مرة فى حياتى.. برغم أن جدى كان طاعنا فى السن.. إلا إنه كان بمثابة الصديق القريب بالنسبة لى.. هكذا هى الحياة يا بنى فراق يلحق فراقا.. يومها دخلت البيت وجدت فيه أناسا كثرا وقد ارتدت أمى الأسود.. ارتميت فى أحضانها أبكى.. دون أن أفهم الأمر بعد لم تكن سنى بالتى تعى كنت ما أزال طفلا.. رحمه الله كان رجلا حكيما.. يحكم بين الناس بالعدل ويقصده التجار والعامة فى منازعاتهم.. فيقضى بينهم بالحق.. مات يوم الجمعة.. كان أبى يقول دائما ليتنى أموت الجمعة.. وهكذا دعوت من بعده.. ولكنى لم أمت الجمعة على أية حال...

تعلم.. بيتنا كان كبيرا يتوسطه نافورة ماء مزركشة.. كان هذا البيت لمغربى سكن القاهرة فيمن أتوا إليها مع الفاطمية.. كان يظن الناس أننا أقرباء هذا الرجل.. فقد كان يزورنا بين الحين والآخر وينزل عندنا ضيفا كلما أتى من الفيوم.. التى سكنها بعد ما ترك القاهرة.. حتى إن الناس ظنوا أننا من أصل مغربى.. القاهرة مدينة عظيمة قصدها الكثير من الناس من الشرق والغرب.. ربما جعلت تلك الأصول المختلفة فيها تناغما لبعض الوقت.. وصراعا دائما على مدى التاريخ فى أوقات أخرى...

* * *

(٣)

– هل تذكر شيئا من صباك؟

– هلا تكف أنت عن مقاطعتى ودعنى أسترسل فى أمرى كما أشاء..

– اعذرنى فقط يغلبنى شغفى.. حسنا لن أقاطعك..

– صباى... كيف أنسى أجمل أيامى؟!.. تلقيت العلم فى الأزهر الشريف كبقية إخوتى حفظت القرآن الكريم وبعضًا من الأحاديث وشيئا من علم اللغة والفقه.. كانت أجمل أوقاتى وأنا ألعب مع أقرانى فى ساحة المسجد ريثما يأتى الشيخ مسعود.. يعنفنا قليلا ثم نبدأ الدرس منصتين إليه.. كان رجلا قبطيا أسلم أبوه ورباه على الإسلام ودرس فى الأزهر حتى صار صاحب عمود فيه.. كان رجلا رحمه الله زاخرا بالعلم.. وبين الحين والحين يمتعنا بقصص التاريخ أو طرفة من طرفه التى تروح عنا كثيرا...

حكى إلينا أنه اتفق فى يوم مع خمسة من زملائه من طلاب الأزهر فذهبوا إلى الأهرامات ليدخلوها وكتموا أمرهم عن الناس.. وما إن وصلوا إلى حفرة حتى خاف من كان معه أن ينزلوا بينما ادعى هو الشجاعة وقرر أن ينزل هو جاءوا بحبل أحضروه معهم وأنزلوه على مهل.. وسرعان ما انقطع الحبل ووقع الشيخ فى ظلمة شديدة غير سلخ من الضوء بدا من أحد الثغور.. فوجد تمثالا جالسا ممسكا بعصا.. أخذ العصا منه ليتكئ عليها حتى يجد مخرجا.. انقطع به السبيل فى الخروج إلى أصحابه.. ظل فى مكانه وانقطع سلخ الضوء وحل الظلام حتى عاود الضوء فى

اليــوم التالى فوجد ثعلبا فتبعه حتى وجد مخرجا ضيقا.. وســع المخرج قدر المســتطاع حتى يســتطيع الخروج.. وما إن خرج حتى سقط مغشيا عليــه.. فالتقطه بعض الســيارة وأحضروه إلى القاهــرة مقابل تلك العصا الذهبيــة التى أخذها من التمثال.. ومــا إن رجع لأصحابه فى الأزهر.. خافوا منه وانصرفوا عنه بعيدا.. زاعمين أنه مات وجاءت روحه الملعونة تحاصرهم.. وظلوا على هذا حتى حكى لهم ما حدث له.. ودائما ما كان يسرد ويسترسل فى الأهوال التى رآها فى الهرم...

هل بقيت تلك الأهرامات إلى عصركم يا بنى؟

– نعم يا شيخ.. هى الآن بالنسبة لنا أكثر قيمة من كثير من البشر..

– هل عبدتوها يا بنى؟

– ها.. وهل عبدتوها يا شيخ أنتم؟!

– لا.. أستغفر الله..

– وكذلــك نحن.. هــى الآن بمثابة رمز لعصر من أعظم العصور التى عاشها الإنسان المصرى القديم..

– أليست طلاسم حتى تحمى مصر من الماء ومن العدو.. وهى قبر هرمس وأخوديمون من حكماء الرومان.. ألا يحجها الصابئة ويلقون فيها النذور؟!

– لا.. لا.. ليــس كذلــك أبــدا.. ألم تخلفوا لنا آثــارا كالقلعة مثلا والحصون.. هى كذلك كانت قبورا لقدماء مصر من قبل الروم أصلا..

– سبحان الله.. كثيرا ما كنت أذهب إليها ويثيرنى الفضول لأعرف ما بها وما أصلها ولكن كنت أخشــى مما حكاه لى الشيخ مسعود.. وهذا التمثال أبو الهول؟..

– نعم لا يزال قائما.. تلك آثار مرت عليها سبعة آلاف سنة.. يأتى العالم ليشاهد قدمها وتاريخها العظيم..

– كنت أعرف أن أبا الهول هذا طلسم ليمنع الرمل عن أهل الجيزة وكان يقابلــه آخر يشــبهه على وادى النيل فلمــا جاء محمد بن قلاوون هدمه وبنى عليه المســجد الجديد على النيل ولم يبق منه شىء برغم أنه ظل حتى ٧١١هـ.

– تلــك هى المرة الأولى التى أسمع عن هــذا.. هل كنت تصدق تلك الخرافات يا شيخ وأنت رجل أوتيت علما؟!

– العلم يا بنى لا يحمى النفس البشرية من الخرافات فالنفس أميل للمرح.. عشــنا حياة مريرة لم تكن لنا فيها متعة غير الخرافة نتناقلها ونمــرح بها.. أحيانا كنت أصــدق قصصًا كثيرة لا عن تصديق أو يقين أو إيمــان بل هى قصة كغيرهــا.. الفقر يجعل دائمــا العامة يختلقون القصص والأســاطير يســلون بها أوقاتهم.. ويجعلــون منها مهربا من واقعهم الذى يعيشــونه.. كنا كذلــك أيضا.. نقنع بما نحن فيه ونترك أهل الأمر لأمرهم.. بالرغم من ذلك لم نكن نســلم من بطشــهم.. فكل شىء لنا حلال لهم..

(استدار إلىّ ورفع يده يشير فى الهواء انفعالا وقال بصوت هادئ):

ما كنت أحسب أن يمتد بى زمنى.... حتى أرى دولة الأوغاد والسفل..

يوم حريق الفســطاط بدأ الحريق بليل وســفن الصليبيين راسية على البحــر (يقصــد النيل) حكى لى جدى عن والــده.. كانت النار تعلو فى الســماء وكأنها لظى تسعر كل شىء والناس تصرخ فى الشوارع ويحملون

أولادهــم ويجرّون الدواب والبغال.. والنــار تجرى من خلفهم تلحق من تلحق فتلفحه.. قالوا يومها إن العاضد خشى على الفسطاط من الصليبيين فحرقهــا.. ظلت النيران تتصاعد وتحرق كل شــىء ثلاثة أيام.. وبعدها خمــدت بعد أن أتت على الفســطاط عن آخرهــا ولم يبق غير جزء من مسجد عمرو علها بركة ابنه عبد الله..

– هل حقا فعل ذلك العاضد الفاطمى؟

– كان شابا لا يدرك حينها.. يا بنى إن للسياسة أمورا لا يعلمها غير أهلها.. والمصريون أهل فضل وصبر.. إيمانهم يسعى بين أيديهم فيجعل منهم على البلاء جلدا.. أيا من كان حرقها فقد رضينا وقد كانت باكورة حرب.. وبعدما انتهى الحريق.. انصرفت المراكب راجعة إلى بلادها بعد ما رأوا النار من بعيد...

– لم تحدثنى عن زوجتك بعد هل تزوجتها عن حب؟

– لم تسمعك أمى... وهل ترانى صنما.. من يعش يا بنى ولا يعرف عن الحب لم يعش أصلا..

* * *

(٤)

كنت جالسا فى يوم فى حانوت العطارة.. شاب فى بداية ريعانه لم يتجاوز العقد الثانى بعد من عمره.. يومها ترك أبى الحانوت وانصرف لبعض أشغال لا أذكرها حتى.. كل ما أذكره عندما دخلتْ علىَّ الحانوت مبتسمة كأنها وردة جميلة أضفى اللون الأحمر على وجنتيها ستارا يوارى جمال وجهها.. عيناها الزرقاوان تحكيان عن أشياء كثيرة وموج بحر متخابط.. ووجهها الممتلئ وأنفها الأخنس يشعل النار فى صدرى..

قالت بصوتها القيثارى أريد البخور الهندى.. لم أسمع ما قالته فى المرة الأولى.. فابتسمت وكان البدر قد أظهر جماله فى ليلة صفت فيها السماء وانتفى كل ما حول البدر من نجوم ليطل بزهو علينا.. ثم أعادت مطلبها فسمعته كأنه صوت قادم من بعيد.. فقلت بصوت متلعثم:

– هل تريدين شيئا آخر؟

– لا.. شكرا..

– كم تريدين؟

– بنصفى فضة..

– هذا كثير.. أليس لكم فى البيت؟

– نعم.. ولكن هكذا قالت أمى..

– نعم.. انتظرى قليلا..... ها هو.. هل من شىء آخر؟

– لا..

– هل أنت من حى الأزهر؟

نظرت إلى وأومأت برأسها أى نعم.. و لم تتكلم.. آخر ما أذكره تلك الابتسامة التى تظهر عن أسنانها البيضاء وعن طابع حسن جعل فى وجهها فزاده بهاء على بهائه.. لم أنم تلك الليلة ظل صوتها يطاردنى فى صحوى ووجهها فى نومى.. كنت أعجز عن الكلام.. من أين لى أن أعرف تلك الفتاة.. يبدو عليها أنها ليست مصرية.. للوجه المصرى ملامحه لا أخطئها أبدا.. ربما من الشام أو التركمان.. أفزعتنى فكرة أنها تركمانية فهم لا يتزوجون من أهل مصر أو من غير التركمان.. وظللت أدعو حتى الفجر اللهم لا تجعلها من التركمان.. ألمحت أمى إلىَّ عدة مرات أننى صرت رجلا وعلىَّ أن أتزوج.. نعم على أن أتزوج تلك الفتاة يبدو عليها أنها تصغرنى بسنوات قلائل.. أعلم أن أمى عندما حادثتنى عن الزواج كانت تقصد ياسمين ابنة عمى مالك.. ولكننى لا أحبها.. ياسمين فى مثل سنى وهى أخت لى تربينا معا.. لا!.. لم أكن أتصورها يوما زوجتى.. أمى لم تكن تفهم هذا ولم تفهم أن أخى محمود الذى يكبرنى بقليل يحب ياسمين وأظنها تبادله الشعور.. لكن فى بيت الزوق الأم هى الحاكمة.. فوالدى يغيب عن البيت أياما وشهورًا فى الحانوت والتجارة..

هذه حالى وهذه أفكارى ذلك اليوم.. وامتد الأمر إلى أيام أُخر لم أعرف فيها نوما.. فقررت أن أفاتح أخى محمود فهو أكثرنا علما.. وهو أخى الكبير وله عند أمى دلال من نوع خاص.. دخلت عليه وهو يستذكر دروسه.. قلت فى صوت متردد..

– السلام عليكم.. هل لى أن أعطلك قليلا؟
– تعال يا حسن..
– كيف حالك؟
– الحمد لله.. وحالك أنت؟
– فى الحقيقة ليس بخير أريد أن آخذ رأيك فى شىء..
– هــل تريد مالا.. أنــت من فى الحانوت وليس أنا وتدير شــئون البيت والمال..
– لا.. الأمر ليس كذلك.. فى الحقيقة..
– أنت تحب.. (قاطعنى فى الحديث)..
– حقا الناس موتى وأهل العلم أحياء..
– (ابتســم ابتسامة خفيفة).. تظن أننى لا أعرف.. أراك طول الليل يقظًا شارد الذهن.. أمى تناديك فلا تجيب.. ياسمين؟ (بدا على وجهه القلق عندما ذكر ياسمين)..
– لا.. فى الحقيقة أنا أعرف عنك أيضا ما تخفيه.. وتتحجج بأنك مازلت تدرس فى الأزهر..
– لا (قالها بصوت مبحوح).. أنا...
– أنت تكابر يا شيخ محمود..
– دعنا من هذا الآن.. من إذن؟
– لا أعرفها..
– أحقا ما تقول (قالها ضاحكا)..
– سوف تتندر علىَّ أعرف هذا جيدا.. ولكن جاءت إلى الحانوت مرة..
– أنت رجل سبهللى يا حسن..

– ربما ولكن ماذا أصنع الآن.. كيف أفاتح السيدة فتحية والدتك..

– جاء لك الموت..

– وماذا علىّ أن أصنع أرسل لها جوابا وهى لا تقرأ..

– لا تتندر على أمك يا حسن.. كفى أن تقف أمامها.. وستعلم هى ما تريده وسأعلم أنا عندما أسمع صوت القبقاب يطأطئ..

– أنت من تتندر إذا يا أبو حنفى (كان يكره هذا الاسم فقال مرة أيكون اسمى محمود من الحمد وتدعونى أبو حنفى اسم هذا أم شؤم؟ كيف يسمى المرء ابنه حنفى! لا يليق بأن يكون اسما لطفل)..

– اغرب عن وجهى (قام يركض ورائى حتى أسرعت فى فتح باب الغرفة وخرجت منها مسرعا)..

– (أغلقت الباب خلفى ثم فتحته وأدخلت رأسى منه) متى ستكلمها يا أبو حنفى؟

– من رابع المستحيلات.. لن أكلمها أبدا..

أدركت وقتها أن على الاعتماد على ذاتى المتواضعة فى مجابهة الأسد فى براثنه، السيدة فتحية رضى الله عنها أمى وأعظم من شاهدت من النساء وأظنها أعظمهن على الإطلاق.. عندما تثور ثورتها كان أخى محمود يطلق عليها اسم شجرة الدر.. أذكر فى مرة أنه قد دخل محمود الغرفة مسرعا وأغلق الباب وقال المستعصمية قادمة.. جرى كل منا إلى السرير يتصنع النوم أو الموت حينها.. فدخلت علينا الغرفة فى غضب وأغلقتها مرة أخرى بحنان.. فقمنا وتضاحكنا.. ففتحت الباب ثانية مبتسمة.. وقالت الطعام جاهز..

فكيف أواجه المستعصمية إذا لست بأيبك المقتول أو لويس المسجون.. فقـررت أن أؤجل الأمر إلى حين.. وقررت أن أجعل جهدى فى المعرفة عـن تلك الخلابة.. لم تمر أيام كثيرة حتى وجدتها ثانية أمامى تحدث والـدى بطلباتها.. وأنا أنظر إليهـا فى صمت وعزلة عن العالم.. وكأننا سـرنا إلى درب بعيد عـن الحياة لم يبق غيرى ووجهها السـاحر.. ثم استفقت على صوت أبى يقول:

– أين الفلفل يا حسن؟

– نعم الفلفل..

أنهـت مما تريده فقررت أن أتبعها لأعلم أين تسـكن.. اسـتأذنت أبـى وتبعتها.. اتجهت نحو حـارة الأتراك فى المقابل من الأزهر.. هذا ما كنت أخشاه.. وجدت امرأة عجوز تجلس أمام حانوت صغير..

– السلام عليك يا خالة..

– وعليكم السلام ورحمة الله.. خيرا يا بنى..

– هل تعرفين بيت من هذا؟

– نعم هذا بيت منصور بك الدفتردار..

– خيبك الله يا حسن (قلتها بصوت خافت)..

– ماذا تقول يا بنى ارفع صوتك لا أسمعك جيدا..

– لا أبدا يا خالة.. قلتِ دفتردار..

– كان كذلك يا بنى قبل ما يعزلونه ويحرمونه من البكاوية..

– ولم؟.. هل كان يسرق؟

– لا يا بنى هذا رجل تقى.. لكن تعرف المماليك..

– نعم.. هل عنده أولاد؟؟

– لا عنده بنتان.. رقية وشويكار.. ومتزوج من اثنتين.. شويكار هانم وهى تركمانية مثله ولا تنجب.. وزينب المصرية أم البنات..

– متزوج من مصرية.. هذا عظيم..

– نعـم.. تعرف البنت التى دخلت منذ قليل.. هذه رقية ابنته وهى مثل أمها تماما.. على خلاف من شويكار هذه متكبرة.. مثل الهانم..

– شكرا لك يا خالة..

هرعت إلى الحانوت سـعيدا، الفـرح كاد يوقف قلبى.. ولكنى قلت يـا قلب اتئد.. حاولت أن أفاتح أبى فى الأمر ولكنى وجدت الأمر أكثر تعقيدا أو كذلك ظننت حينها.. فكتمت سـرى وقلت أنتظر حتى أفاتح شجرة الدر فى الأمر..

وصلـت إلى البيـت الكبير وأمى تجلـس كعادتها فـى ركن الصحن الخـاص بالكانون المصرى وعليـه أوانى الطهى النحاسـية والفخارية.. وتقطـع الخضار فـى حلة ورثتها عن أمها كانت تحكى لنا أنها من عهد جدتها الكبرى منذ عهد الأشرف اينال (دولة المماليك البحرية ٨٦٥هـ).. كيف سـأحكى لها عن ذلك التركمانى المسـلوب القيمة.. حتى إن ابنته تخرج بنفسـها لتشـترى حاجات المنزل.. وكيف أرفض ابنة عمى مالك وألح لها عن مكنون محمود بالنسبة لياسمين.. مالك عمى ولكنه لا يعمل بالعطارة كوالدى وجدى... تعلم النجارة منذ صغره حتى صار يصنع أثاثا للبكوات والبشوات فى قصورهم ويزخرفها بالصدف والأرابيسك..

دائمًا ما يسـتميل إبراهيم أخى الصغير ليعمل معه فإبراهيم لا يحب العطـارة مثل عمى ووجد فيه عوضا عن ابنـه المدلل.. دائما ما يتهرب

إبراهيم من أبى حينما يطلب منه شـيئا من الحانوت.. ولكنه أميل لأن يكـون نجارا مثل عمى مالك.. فكـرت حينها أن أحدث إبراهيم بالأمر فيقـول لعمى مالك ولكنى قلت ما هذا العبث.. إنه لأمر مخز إلى درجة الفضيحة ولن يمر بسـلام خاصة إبراهيم لا يزال صغيرا حتى يعى مثل تلك الأمور.. ليس أمامى إلا أن أجابه شجرة الدر...

دخلت متباطئًا أكاد لا أسمع خطواتى وعلى الرغم من أن أمى كانت متجهة إلى الكانون غير أنها عرفت أنى أنا القادم.. التفتت إلىَّ وقالت:

– ماذا تريد يا حسن؟

– أنا لا شىء.. فقط جئت أسأل عن الـ... الطعام.. ماذا أعددت اليوم؟

– هل سمعت سؤالى.. ماذا تريد ومنذ متى تسأل عن الطعام؟

– أنا جائع..

نظرت إلىَّ نظرة متفحصة وكأنها تقرأ أفكارى.. قلت فى نفسى علىَّ أن أبـدأ بأمر محمود.. سـامحنى يا محمود.. سـيأتى من الأزهر يجد مذبحة فى البيت بسببى.. قلت:

– لماذا لا يتزوج أخى محمود؟.. أنا أخشى عليه..

– (مقاطعة).. أخوك يدرس فى الأزهر.. ولا يريد الزواج الآن..

– أخشى أن يكون الأمر غير ذلك..

– ماذا تقول أيها الخبيث؟

– أبدا.. أقول ربما لأنه يميل إلى واحدة ما من الفتيات..

– صه أيها الخبيث.. أخوك رجل علم وصاحب عمامة لا يفعل مثل ذلك أبدا..

– وهل هذا حرام مثلا.. وأنا لا أعرف..
– حسن.. اذهب الآن عندى ما يشغلنى..
– أنا أعرف إلى من يميل الشيخ محمود ويتحرج من قول مكنونه..
– ألا تكف عن هذا؟!
– إنها ياسمين..
– ياسمين ابنة عمك.. (قالتها مبتسمة)..
– نعم.. ومن غيرها.. ألم تلحظى شيئا بينهما؟
– أخــوك خجول ولا يتكلم كثيرا.. اسمــع لا تحدث أحدا بذلك.. اذهب الآن وعندما يأتى أخوك ســأعرف إن كنت صادقا أم..... تعرف يا حسن إن كنت كاذبًا سألفحك بنار هذا الفرن..
– هذا أقل ما فى الأمر يا شجرة الدر..

كانت تضحــك وتدارى ضحكها بالضجيج عندمــا يناديها أحد منا بذلك.. وبالرغم من هذا يرتســم على وجهها الابتسام.. ابتسامة من نوع غريب فيه فخر وكأنها تباهى بكونها امرأة مثل شــجرة الدر.. وكالعادة قالت بابتسام وصوت قوى..
– اذهب أيها الوغد..
– أيتها المستعصمية (قلت ذلك وأنا منحن راجع إلى الخلف بظهرى كتحية السلاطين وبينما أنا راجع بظهرى اصطدمت بمحمود وقد رجع)..

مــال محمود علىَّ وبصوت سمعته بالــكاد.. ماذا فعلت أيها الماكر.. فقــط اكتفيت بالابتســام والخروج الســريع.. إلى الغرفــة التى تجمعنا كإخوة.. غرفة كبيرة فيها ثلاثة مخادع نحاســية.. سقفها مرتفع بشكل يجعل الهواء فيها الجو معتدلًا دائما صيفا وشــتاء.. فرشت فوق السرائر

ستائر غطت عواميد السرير النحاسية.. جلست على السرير.. وعلى غير توقعى ليس هناك أية اشتباكات.. لا أسمع شيئا بالرغم من أننى أجتهد فى التنصـت.. ليس أمامى خيار آخر.. أنتظـر محمود وقد يضربنى.. قليلا ما نتشاجر ولكنى أتوقع اليوم معركة..

لم يلبـث محمود غير قليل لكن انتظاره جعلنى أظن أنه مكث كثيرا فى جداله مع أمى.. دخل إلى الغرفة وعلى وجهه تعبير متخالط ما بين الغضب الشـديد وابتسامة الفرحة.. حتى إنى أحسست بخفقان قلبه.. أغلق الباب وأرخى رأسـه عليه.. لم يلحظنى فى أول الأمر.. ثم التفت بشكل فجائى.. ألقى كتبه على المنضدة.. ثم ألتفت ثانية إلـىَّ وفى عينه بدا الشر مخلوطا بالمرح.. لحظتها قررت أن أعترف بكل شىء.. أخذت أتكلم بلعثمة وسرعة حتى بدا ما أقوله غير مفهوم.. ونظراته إلـىَّ تزداد شراسة.. قلت:

– عليك أن تشكرنى.. ولن يسعك شكرى.. قد فعلت الصواب...

– صواااااااااااااب.. نعم أعرف استمر..

– أليس هذا ما كنت تريده؟!

– أريده.. نعم هذا ما أريده (قالها متهكما)..

– محمود أنا أخوك.. الصغير.. وأنت دائما تسامح..

– أساااااامح.. فعلا سامحتك كثيرا.. لكن ليس هذه المرة..

– بالله عليك.. لا تضربنى.. اسمع إن ضربتنى سأخبر شجرة الدر.. أقصد أمى..

– هل تعرف ماذا فعلت شجرة الدر؟

– لا.. لم أسمع شيئًا يتكسر..

– لا تقلق ستسمع عندما أبرحك ضربا.. أما معى.. فلا شىء..

– لا شىء (بتعجب)..

– لا شـــىء.. أبـــدت رصانـــة غريبة وقالت لى بكل هـــدووء.. هل تحب ياسمين يا شـــيخ محمود.. لم أجب وتلعثمت وأخرجت المنديل أجفـــف عرقى الذى يغمرنى فقالت.. نعم فهمت.. ثم أخذت تحدثنى عن الوضوء..

– وضوء؟!.. وأنت تريد أن تضربنى؟.. أنا ذاهب..

أخذ محمود يضحك وغمرت وجنتيه الســـعادة ونســـى ما كان يقدم عليـــه من ضربـــى.. هذا محمود حلت قضيته.. أعرف أن أمى لن تترك الأمر على الرغم من أنها لم تبد اهتماما.. وهذا ســـبب أدعى لأن أتأكد من أنها ستســـعى بكل عزمها فى الأمـــر.. ها هى ترتدى زيها الرسمى وهو جلبـــاب أعدته للمهمات الرسمية.. لأمى حركة بيدها إن ســـألها أحد عن شـــىء فأعرف أن الأمر جد خطير تطوح يدها بشـــكل دائرى رشـــيق.. يبدو هذا التعبير مع شىء من الرصانة.. فعلمت من ذلك أنها تدبر شيئا.. سألتها:

– أين أنت ذاهبة؟

– إلى جدتك لن أتأخر..

تســـاءلت.. إلى جدتـــى؟!.. ثم خطر فى ذهنى شـــىء.. لم لا تكون جدتى؟ كيف غابت الفكرة عنى؟.. كانت جدتى تلك امرأة طيبة رحمها الله.. إلا أنهـــا كانـــت لا تحب أمى أبدا أو كذلك كنت أشـــعر.. لذلك

عجبت عندما قالت أزور جدتك.. فجدتى تعيش مع عمى مالك فى بيته مــع زوجته صفيــة وابنتهما ياسمين (العروس).. وأخيها حســونة ذلك الصبى المدلل.. لا يحســن شــيئا فى الحياة غير اللعب ومغازلة النســاء والتطلع إلى عوراتهن.. جدتى تحب حســونة هــذا ودائما ما يقول أبى هى سبب فساده...

عادة ما كانت تقول أمى ذاهبة إلى بيت عمك.. أو إلى خالتك صفية.. أما هذه المرة.. لعلها وجدت جدتى هى الســبيل إلى ما تريده.. نعم ومن غيرها يستطيع أن يحسم الأمر.. بالرغم من أن جدتى تكره أمى لأسباب لا أعلمهــا أو أن الأمر فطرة عند النســاء.. إلا أن أمــى لم تكن تبادلها الشــعور هذا أو هكذا أظن.. للنفس خباياها.. أما عن خالتى صفية فهى طيبة إلى درجة كنت أعجب لها امرأة متدينة بالرغم من أنها تســتخدم الآيــات فى غير مواضعها.. عملت طيلة عمرها بمثابة آلة نافذة لطلبات جدتى لذلك كانت تحبها كثيرا.. لذلك قررت ما إن ينقضى أمر محمود وياسمين.. حتــى أحكى لجدتى الأمر كله أصارحها دون تردد.. وقلت فى نفسى الصبر يا حسن...

جدتــى كانت نموذجا للمرأة المصرية الصارمة الحاسمة.. بالرغم من الــذى بينها وبين أمى فــإن أمى كانت تقلدها فى كل شــىء تقريبا.. لذلك كنا نســميها بيننا أم على.. غريمة شــجرة الدر.. فى مرة سمعتنا نتحدث عنها وذكرنا اســم أم على.. قاطعتنا بغضب شــديد.. وقالت: من تقصدون أيها السفلة.. قلنا أبدا يا جدتى نشبهك بأم على فتلك هى أكثر الحلوى التى نحبها بالمكســرات.. قالت بغضب صارم يبدى مدى

كراهتها لأم على (الشـخصية).. أنا لا أحبها قتلت شجر الدر وتركتها عارية فى ساحة القلعة ثلاثة أيام وتريدنى أن آكلها.. كانت من حزب شـجرة الدر مثل أمى.. ترى أنها كانت امرأة عظيمة الجمال والذكاء.. بالرغـم أنه لم يرها أحـد منهما فإن الجمع على حبها كان دائما يترك بابًا بينهما مفتوحا..

لجدتى تلك نوادر كثيرة.. كانت امرأة متدينة.. تحرص على الصلاة وإسباغ الوضوء.. برغم أنها أيضا كانت لا تحفظ غير الفاتحة وبعض من صغار الصـور.. ذهبت للحج أربع مرات.. غير أن لها اعتقادات غريبة ورثتهـا عن أمهـا.. لم يكن الأمر غريبا فى عصرنا فقد انتشـر الخرف والخزعبلات بشـكل غريب بين الناس.. كانـت تقول مثلا أن لابد من رش البيت بالماء والملح فى الأركان الأربعة.. اعتقادا منها أن ذلك يطرد العفاريت.. وأيضا حينما ترش الماء السـاخن على الأرض تقول بلفظتها العامية «دستور يا أسيادنا».. وغير هذا كثير من ألوان الشعبذة..

سألت يوما الشيخ يعقوب.. أول من حفظت على يديه القرآن الكريم.. عن هذا الأمر.. فقال: كيف يا بنى يجعل الله من الإنسـان سيدا للكون وسـخر له كل شىء ويجرى خلف هذا الخرف.. كان رجلا جميلا قيل إنه فى شـبابه كان يهوديا ثم أسـلم.. وبالرغم من بصره الذى كف فإن فراسـته كانت جامحة على كل حواسـه.. امتاز بخفة الظل أيضا لذلك كنت أشـك فى أصله اليهودى هذا.. فعندما يخبط أحدًا وهو سائر كان يقول «الغريب أعمى ولو كان ضريرًا».. رحمه الله...

* * *

(٥)

انتظر الليل حتى أعرف إلى ما افضت مساعى أمى.. بالرغم من أن شيئا كان يقول فى نفسى إنها لن تعود قبل أن تنهى الأمر على ما يرام.. أعرف أمى كما تعرفنى هى.. لم يطل انتظارى كثيرا بعد العشاء.. جلسنا كالعادة مجتمعين على العشـاء.. جلسـت أمى آخر واحدة معنا بعدما تأكدت أننا جميعـا حاضرون.. قالت بصوت واثق و عينـين براقتين.. باركوا لأخيكم الشيخ محمود سيكون زواجه أول الشهر القادم على ابنة عمه ياسمين.. ثم التفتت إلى والدى وقالت هكذا قالت الحاجة (تقصد جدتى)...

تلقى محمود الخبر ببشاشـة وسـعادة غامرة.. بالرغـم من أنه كان يحاول أن يسـتحضر وقاره الدائم فإنه لم يقدر أن يخفى الأمر أكثر من ذلك.. ملت على أذنيه مهنيا.. ها قد حلت المعضلة.. نظر إلىَّ مبتسما ثم تعانقنا عناقا طويلا.. عرفت يومها أن الليلة سـعادة محمود لا توصف.. قررت ألا أشـغل باله بأمرى.. وأن أصارحه غدا.. الآن دور جدتى غدا فى الصباح آخذ البن اليمنى الذى تحبه.. وأفاتحها فى أمرى..

مر الليـل طويلا.. بنوم متقطع وقلق على العكس من محمود فقد نام قرير العين وكأن نفسه قد سكنت.. أما أنا فقد شغل بالى الفكر وتساؤلات عـدة.. ماذا لو رفضت جدتى الأمر؟.. ماذا لـو قلبت علىَّ أبى؟.. ماذا لو رفضت أمى الأمر؟.. ماذا لو رفض الدفتردار الأمر؟.. ليس من السهل أن تناسب دفتردار تركى فهم لهم عادات وأعراف فى زواجهم.. أما هذا فمتزوج من مصرية بسيطة.. اتخذها زوجة وليست جارية...

وأخيرا أذن الفجر.. ها قد انتهى ليلى الطويل.. وعند شروق الشمس كنت فى بيت عمى مالك.. أعد القهوة لجدتى.. لا أجد شيئا آخر يمهد الأمر غير شـجرة الدر.. أو كما كانت تصر على تسـميتها شجر الدر.. لا أعلـم أيهما صحيـح أو أنها كانت تريد من جمع الشـجر للتعظيم.. ولكن كانت دائما تصحح لمن يقول شـجرة الدر أن الاسـم شـجر الدر.. على العكس من أمى التى كانت تصر دائما على أن اسمها شجرة الدر...

جلست كعادتها على الأريكة الموضوعة تحت المشربية وتناولت قدح القهوة من يدى.. وأطالت النظر كعادتها متأملة فى السماء والأرض وفى شـوارع المحروسـة كما كانت تطلق على القاهـرة.. اخترق صوتى هذا الصمت بشكل مرتبك..

– هل كانت شجر الدر يا جدتى جميلة؟

– كانت رائعة الجمال.. كانت أرمينية.. وهؤلاء النسوة يعرفن بجمال العينين وبياض الوجه.. (ثم سـكتت قليلا).. ولِمَ تسأل عن جمالها هل كبرت وخبرت النساء يا بن فتحية؟..

– لا فقط كنت أسأل عنها كامرأة.. أجد فيها الكثير منك يا جدة..

– تتملقنى.. أنت تريد شيئا آخر آت ما عندك..

– أنا لا أبدا.. أنا.. أنا.. (بصوت مرتجف)

– لا تخف يا حسن.. لن أخبر أمك بالأمر..

– أريد أن أتزوج يا جدة..

– هل غرت من أخيك محمود (قالتها ضاحكة)

– لا.. الأمر ليس كذلك..

– إذا أنت تحب يا بن فتحية..
– نعم.. لن أستطيع أن أنكر.. وليس عندى ما يشغلنى عن الزواج..
– ومن تكون؟
– آه.. من تكون؟.. اييييييييه.. هى.... هى...
– ستعاود من جديد.. احك ولن أخبر أحدا.. هذا وعد..
– إنها ابنة أتبك..
– أتبك؟!
– دفتردار.. دارت عليه الأيام.. وحرموه من كل شىء حتى البكاوية..
– هل جننت يا بنى؟
– لا.. أبدا.. إن أمها مصرية..
– مصرية.. تقصد ابنة جارية..
– لا بل زوجته الثانية مصرية.. اسمها زينب..
– وابنتها؟
– رقية..
– اسم جميل.. ولكن كيف تتزوجها يا حزين وأبوها بك؟
– اسمعى يا جدة هذه الفتاة تأتى إلى الحانوت فى طلبات لأمها..
– تقصد ضاع حالهم... أحببت يا موكوس..
– صدقا بل هِمْت..
– آه وتريدنى أن أفاتح أباك فى الأمر..
– ومن لها غيرك يا جدة..
– إذًا فانتظر حتى ينتهى أمر أخوك ثم نرى أمرك بعدها..

خرجت من عندها إلى الحانوت.. شـعرت أنها تحاول أن ترضنى.. أو ترفض مساعدتى على نحو غير جارح.. دعوت الله أن أراها فى ذلك اليـوم أقصد رقية.. أردت رؤيتها بشـدة.. ليس عنـدى الجرأة فى أن أذهـب عند البيت أنتظر أن أراها.. ولكن كانت أبواب السـماء مفتحة لدعوات المحبين.. وجدتها أمامى.. وكأن الشمس قد سطعت بعد غياب فى ليالى شتاء ممطرة.. بدا على وجهى السرور.. ولم أحاول أن أخفيه.. ولم أفكر حتى.. أرى نور وجهها الأبيض الصغير وقد زينه لون طرحتها الأسود فازداد نورا على نوره.. وهكذا لقيتها..

– أهلا وسهلا.. أمرك..

– أريد ملحا بنصف فضة..

– هل من شىء آخر..

– لا.. شكرا..

– عندنا شطة هندية وصلت توا من الهند..

– شكرا الملح فقط..

– نعم.. ها هو الملح يا رقية.. هذا اسمك صحيح..

– لا.. نعم..

أسـرعت خطواتها مبتعدة عن الحانوت وكأن بها شـيئا.. حاولت أن أتبعهـا ولكـن لا أملك الجرأة أبدا.. ويلى ماذا فعلت!!.. هل تخبر والدها.. أين ذهب عقلى.. أم أن الحب يذهب العقل.. لا أعرف.. هذا دورك يا محمود.. نعم هذا دورك.. اسـتأذنت أبى وخرجت إلى الأزهر حتى أرى محمود.. وجدته جالسـا فى ساحة الأزهر.. يدارس أمرا مع أصحابه.. لم أبال بما يفعل.. ناديته

– يا شيخ محمود..

– حسن.. هل حدث شيئا..

– لا أبدا.. كنت أريدك فى شىء ما..

– خيرا.. هل من سوء؟

– أبدا يا محمود إنه شىء يخصنى أنا..

– ليس بعادة أن تأتنى هنا..

– اسمع يا أخى.. لقد ساعدتك فى أمر زواجك.. وجاء دورك الآن لتساعدنى.. لن أجد غيرك وأخوك إبراهيم لا يزال صغيرا لا يفهم تلك الأمور..

– ألهذا أتيت إلى هنا ووجهك مصفرا (قالها ضاحكا)

– لا تقلل من الأمر يا محمود.. فأنا الآن فى مشكلة..

– الحب مشكلة.. وأية مشكلة.. اسمع عندى الآن درس.. انتظر بعد العصر وسألحقك إلى البيت..

– نعم.. لا تتأخر..

ألهمنى ذلك بعض الصبر والتمهل.. وعندما حان الميعاد عاد.. دخل الغرفة مسرعا.. وجدنى منتظرا عند مشربية الغرفة على غير عادتى.. سألنى على عجل.. ما الأمر وعندما حكيت له قال:

– ويحك.. ابنة الأتبك منصور الدفتردار..

– وما فى ذلك؟

– ألا تعرف قصته.. لن ينالك من هذا غير التعب..

– أعرف أنه عزل من منصبه ومن البكوية..

– وبظنك لماذا أيها الأبله.. لقد خان محمد باشـا النشانجى.. سرق من أموال المسلمين ما ليس له حق فيه.. ولولا إسماعيل بك (أمير الحج وقتهـا) يحفظ له جميلا لقتل وعلقت رأسـه على باب زويلة.. ألم تجد غير هذا الرجل... (كان ذلك فى ١١٣٥هـ تقريبا)..

– ربما يكون مظلوما..

– وإن كان كذلـك.. أنـت تعرف أن أباك تاجر يسـافر إلى البلدان وللأتابـك معه باع طويـل.. ماذا لو علم أحدهم بالأمر؟!.. ألا تخشـى علينا من بطشهم؟

– وماذا أصنع فى تلك اللعنة التى حلت بى.. أنت ستتزوج من تحب.. وهذا من حقى أيضا.. ومالى والسياسة وأهلها.. وما يحدث فى القلعة..

– هكذا أنت دائما..

– لن تساعدنى إذا.. نعم.. كنت أعرف هذا.. لك الله يا قلبى..

– حاول أن تتفهم الأمر ولا تكب على وجهك..

– أشكرك يا محمود.. هكذا يكون رد الجميل..

– أنا أخوك الكبير وأخشى عليك.. أنت لا تعرف هؤلاء..

– هه..

– عموما سـوف أحـاول.. دعنى أتحين الفرصة المناسـبة.. وأفاتح شجرة الدر..

– هذا ما كنت آمله منك.. وأعدك إن فعلت فلك عندى ما تشاء...

ابتسـم محمود على مضد وخرج من الغرفة وقد بدا على وجهه القلق والعبوس.. أعرف أنه سـيفاتح شـجرة الدر يوما قريبا.. فقط يحاول أن

يستكشـف الأمر ويتدارك توابعه.. هكذا هو طبع أخى.. يحسـب للأمر السـيئ قبل الحسـن.. هذا ما جعله يؤجل أمر زواجه من ابنة عمنا إلى ذلك الحين..

– قد فعلت ما أسـتطيع.. ليـس أمامى غير الانتظـار.. ماذا عنها الآن.. هل شعرت بما كنت أود أن أقوله.. أم أنها فهمت الأمر على غير حاله.. لا.. لا إنها فتاة ذكية يبدو عليها ذلك.. ليست كما تدعى جدتى علـى الأتـراك أنهم أغبياء متعجرفون.. على أن أكـون فى المرة القادمة أكثـر جرأة.. أصارحها بحبى لها.. لا ليس إلى هذا الحد.. أبعث إليها خطابًا.. لا.. ربما يقع فى يد أحدهم فتكون عاقبة أمرى خسـرا.. ماذا أفعل إذًا.. نعم قصاصة ورق صغيرة أضعها فى يدها دون أن يشعر أحد.. أكتب فيها مثلا أن تلقانى عند النهر.. لو أتت يكون هذا ردا بالقبول.. أيمكـن أن يحدث هذا فعـلا.. لم لا.. نعم أظنها سـتأتى.. أعرف من عينها أنها تبادلنى الشعور...

هكذا كان يعمل شيطان رأسى.. كتبت القصاصة وجعلتها فى جيبى.. ربمـا تأتى فـى الغد.. ولكنها لم تـأت.. ومرت عدة أيـام ولم تأت.. ما الأمر إذًا.. علىَّ أن أسأل عنها.. كيف؟.. لا أعرف.. سأنتظرها عند البيـت.. لا لن يمنعنى شـىء عن رؤيتها ولو مـن بعيد.. بالفعل فعلت وجلسـت أنتظر عند الباب سـاعات طوالا.. ها هـو الباب يفتح.. أمام البيـت تنتظر عربة تجرها أربعـة خيول ويقف إلى جوار الباب حورانى أسمر البشـرة.. لبس بزة منقوشـة وطربوشًـا أحمر اللون.. خرجت من الباب الكبير امرأة بدينة تبدو عليها السـمات الجركسية.. وإلى جوارها

فتاة شابة.. مصرية الملامح جركسية الملابس والحديث.. ركبا معًا العربة وأغلق الباب الحورانى وجرى بالعربة بعيدا...

ها قد بدأت الشمس فى الغروب.. رجعت إلى البيت حزينا لا أكلم أحدًا.. إلى غرفتى التى شهدت ليلة من ليالىَّ الطويلة أنظر إلى السقف البعيد.. وأتأمل صورتها التى لا تفارقنى.. مؤلمة لواعج العشق.. ولكن من يقدر أن يدفع هذا العذاب الجميل.. فى الصباح ذهبت إلى الحانوت كعادتى.. فبالأمس وبخنى أبى على هذا التأخر غير المعهود منى.. بالرغم من أنها المرة الأولى فإننى سرعان ما نسيت الأمر كله...

– بينما أنا جالس.. إذ بصوت يناديني..

– يا ولد..

– من؟.. الراهب سمعان.. كيف حالك أيها الرجل الطيب؟

– نشكر الرب يا بنى على كل حال.. أين أبوك؟

– وصل إلى الغورية فهناك من يحتاج إلى التطبيب.. إذا كنت تريد شيئا فأنا لها..

– كبرت يا حسن (قالها ضاحكا)

– تمر الأيام سريعا على ما يبدو..

– آه.. يبدو على وجهك الشحوب.. هل عندك ما تقوله لعمك سمعان؟

– لا.. فقط أريد بعض الراحة..

– إيه أتدارى عن عمك سمعان أمرًا يجعلك لا تنام يا بن الزوق؟

– لا أريد أن أشغلك بأمرى..

– إذا فهو.. لا يجعل للجفن راحة.. وتتيه النفس فى دروبه..

– وما ذاك؟

– الحب يا حسن يا بنى.. هل تظننى غافلا عن هذا..

– ومن أين لك أن تعرف عنه.. أنت معتزل الناس فى الصحراء منذ سنوات لا تأتى إلى القاهرة إلا قليلا..

– درب الحب واحد يا حسن يا بنى.. أنا أيضا محب.. محبة الله أعظم أنواع الحب.. ولأجله أعتزل الناس..

– نعم.. كم تريد من البخور هذه المرة؟

– لا لن آخذ شيئا الآن.. سأعود عندما تغيب الشمس قل لأبيك أن ينتظرنى..

فى الحقيقة وقع كلامه فى نفسى.. ولكنى خشيت إن ذكرت له الأمر يخبر والدى به.. لا أدرى لم خشيت من هذا بالرغم من أن هذا هو ما أريده بالفعل.. ربما خشيت عليها أيضا..

فى الليل بدا علىَّ التعب.. فهم ذلك محمود.. فهذا الشيخ المحب لا تخفى عنه لواعج الحب أيضا.. فمحمود شاعر ويحفظ من الشعر الأندلسى الكثير وخاصة لابن زيدون.. فعندما رآنى على هذه الحال قال أبياتا من شعر ابن زيدون وقعت فى نفسى بشىء من الشجون حتى ذرفت دموعى..

ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما استودعك

يقرع السن على أن لم يكن زاد فى تلك الخطى إذ شيعك

يا أخا البدر سناء وسنا حفظ الله زمانا أطلعك

إن يطل بعدك ليلى فلكم بت أشكو قصر الليل معك

(السن هو طائر يصدح حين يموت.. من طيور الأندلس)

بات أمرى عنده مفضوحا.. ورق لحالى فقال: فى الغد سـأخبر أمى عن أمرك.. لا تخف يا حسن.. لم أرد واكتفيت بإيماءة رأسى.. وتطلعت إلى السقف الذى صار جزءًا منى...

فـى الصباح تأخرت فى الاسـتيقاظ. غلبنى النوم سـاعة الصبح.. لم يقطع غفوتى غير صوت شجرة الدر.. يصرخ فى أذنى..

– هل عقرت نساء مصر حتى تلجأ للأتراك يا بن فتحية؟

– أتراك؟!.. صباح الخير يا أمى..

– صباح أسود يا بن فتحية.. هل جننت يا حسن.. بنت الدفتردار؟!

– تعرفين يا أم محمود للقلب سلطان..

– هل تريد أن تقضى علينا يا حسن..

– لا يا أم.. ألم يشرح لك محمود الأمر؟

– أى أمر؟

– هذا الدفتردار الآن رجل بسيط سلبه المماليك كل ما له من سلطان ومال وجوار.. وهو الآن متزوج من مصرية مثلنا.. اسمها زينب..

– أهكذا الأمر.. وتريد أن ينالنا ما نالهم فيسلبوا أباك تجارته وبيته..

– أنا ذاهب للحانوت يا أم..

– أية حانوت يا بن فتحية.. ذهب أبوك باكرا وأنت تنام حتى الضحى..

قمت من سـريرى دون أن أتكلم.. وأعددت نفسى وأخذت الطربوش الأحمر ووضعته فوق رأسى.. وذهبت للحانوت..

– صباح الخير يا أبتِ

– صباح الخير.. مالك يا حسن.. هل بك داء يا ولدى؟

– لا أبدا أنا بخير.. فقط جافانى النوم بالأمس.

– هل صرت رجلا وعرفت الحب يا حسن؟

– حب؟!.. أى حب؟

– هكذا قال الأب سمعان..

– ربما يكون مخطئًا فى تقديره لأمرى..

– ربما يا بنى.. ولكن لا أظن أن أخطئ أنا أيضا.. اسمع يا بنى أنا أبوك.. اشتد عليك أحيانا ولكن أنا أعلم بك منك.. أحك لى ولا تخف.. سأكلمك كرجل يشكو إلىَّ أوجاعه...

– نعم يا أبى عندك حق.. لقد.. لقد.. أحببت..

سـردت له الأمر واكتشـفت يومها أن الحديث معه كان أفضل من حديث النسـاء.. فبالرغم من أنه يقسو علىَّ فعلا فإننى وجدت منه تلك المـرة أذنًا مصغية وفهمًـا للأمر لم أتوقعه.. ليتنـى عرفت هذا من أول الأمر.. تعرف بعدما أنهيت حديثى قال:

– اسمع يا ولدى الخميس القادم زواج أخيك على ابنة عمك.. دعنا ننتهى من هذا الأمر أولا.. وأنا لها..

كانت تلك الكلمات كالبرد على قلبى.. فأبى يعرف هذا الدفتردار.. ويعـرف قصته على حقيقتها.. ويعرف أنـه رجل ليس كبقية الرجال فعـلا.. فى يوم مرضت زوجته الجركسـية تلك.. كان هذا يوم زواجه مـن زينب المصرية.. برغم أنها هى من اختارتها للزواج بزوجها.. فقد كانـت تعلم أنها لا تنجب.. وأشـفقت على زوجها مـن حرمانه من

الولد.. ولكن فطرة النســاء تغلب فى تلك اللحظة.. أرســل الرجل فى طلب والدى ليطببها.. ومنذ هذا اليوم صار طبيبًا لأســرة هذا الدفتردار الجركسى منصور...

زينــب زوجته الثانيــة تلك ابنة رجل بســيط.. كان يعمل فى قصر شــيخ البلد.. اختارتها شــويكار.. زوجته الجركسية حتى لا تشعر أنها أعلــى منها منزلة.. وبالرغم من هــذا.. لم تفقد حب زوجها لها أبدا.. وأيضا لم تكف عن الغــيرة من زينب.. وأصرت يوم ولدت ابنتها الأولى أن يكون اسمها شــويكار على اسمها.. وافقت زينب على أن تختار اسم ابنتها الثانية.. وكانت رقية هى الثانية.. قربت شويكار هانم الكبرى.. شــويكار الصغرى منها وتولت تربيتها منذ صغرها.. فكان طبعها أشــبه إليها.. على الرغم من الملامح المصرية التى طغت عليها...

شويكار الصغرى بلغت العشرين ولم تتزوج بعد.. والسبب زوجة أبيها تريد أن تزوجها من جركسى.. لا من مصرى.. فهى تعدها ابنتها التى لم تلدهــا.. على عكس الحال من رقية.. فقد أعطيت رقية ملامح جركســية طغت علــى وجههــا.. ولكنها كانت شــبيهة أمها المصرية فى البســاطة والتواضع.. لذلك كرهتها شــويكار الكبرى وعاملتها بقسوة.. وبعدما حل بهم ما حل.. كانت توكل إلى رقية أعمال البيت مع أمها زينب بينما هى وشويكار الصغرى تجلسان فى صحن البيت تتأملان وتتآمران...

زادتنــى تلك الروايــات طمأنة.. وجرأتنى علــى أن أقدم لها الورقة المكتوبــة.. لا بل أكتب لها شــيئا آخر.. أن تلقانى عند شــاطئ النيل بعــد العصــر عند حوانيت النجاريــن.. نعم هذا ما ســأكتبه.. وبالفعل

كتبت ورقة صغيرة.. ولم يطل صبرى.. فجاءت كعادتها تطلب البخور.. لم أتكلم بشـــىء كثير فقط ســألتها هل تأمرين بشـــىء آخر.. وبصوتها الدافى.. قالت لا شــكرا.. أعطيتها البخــور وفى اليد الأخرى الورقة.. لم تــأت وظللت منتظرا حتى آذان المغرب.. وعاودت الأمر أكثر من مرة ولكنها لا تأتى أبدا...

كعادة المحبين التمست لها العذر.. ولكن بعدها علمت أنها لا تقرأ.. لم تحــظ بالتعليــم كأختها الكــبرى المغرورة.. ضحكــت يومها كثيرا.. لم أعرف بذلك الأمر إلا بعد زواجنا.. سألتها مرة لماذا لم تردى قط على تلك الرســائل فتأتى.. فقالت إنها لا تقرأ و بالرغم من هذا حفظت تلك الرسائل فى شكمجية لها...

* * *

(٦)

منـذ صارحنـى أبى وحكيـت له أمرى تبـدل حالى معـه.. فصار لا يخاطبنـى إلا كالرجـال.. ولا يرفع صوته فى حديثى كما عهدته من قبـل.. غيبة أبـى عن البيت جعلته بعيدا عنـا.. نحبه ونحترمه ولكن لا نلجـأ إليه فى طلب.. فى صغرنا كانت أمى تخوفنا منه.. «سـأخبر أباكم حينما يرجع».. هكذا كانت تقول دائما.. خاصة أنه كان يسـافر كثـيرا ويتركنا فى رحلات تجارته التى تمتد أشـهرا.. يذهب خلالها للحج أحيانا.. سمعت جدتى تقول إنها ستذهب معه فى الرحلة القادمة قاصدة الحج.. ستكون رحلة شاقة عليها.. كيف ستتحملها؟!.. ولكنها قالت ذلك.. لا تعود غالبا فى رأى أو قول.. سمعتها تحدث عمى مالك أنهـا تريد أن تموت وتدفن فى مدينة رسـول الله.. مثل جدى وزوجها الحبيب الذى لم تنساه يوما.. بالرغم من أنها كتمت حزنها عندما مات حتى على أولادها.. واسـتمرت علـى دربه حتى إنها كانت تجلس فى حانوته تبيع للناس.. اكتسـبت من ذلك شـهرة و احترامًا من الناس.. بيتها لا يفرغ أبدا من الزوار...

فـى العـام الماضى أعدت جدتى نفسـها لتخرج مع أبـى إلى الحج.. ولكنها مرضت مرضا شـديدا ولم تستطع الخروج معه.. وظننا جميعا أنها النهايـة ولكـن عفاها الله.. ربما اسـتجاب الله لدعائهـا.. أذكر أن أمى جلست إلى جوارها طيلة مرضها.. بالرغم من جهود خالتى صفية الكافية.. أعلم أنها تحفظ ذلك لأمى.. ولكن خبايا النساء تستر الكثير من الحقائق..

يعلمــن الحق ولكن لا تطيب لهــن نفس فى إظهاره.. تلك هى طبائعهن.. ولا يظهرنها إلا فى الشدائد.. هذا عن بنات الأصول.. أما الأخريات فليس لهن أصل.. هكذا كانت تقول جدتى.. كانت تكره المماليك كأى مصرى.. حتــى إن الوظائف الحكومية فى عهدنا تعد عارا وينظر إلى صاحبها نظرة دونية.. هكذا كان حال المماليك منذ كنت صغيرا...

الناس كرهوا حكم هؤلاء الأشــاوس.. ولكنهــم فضلوا أن يكونوا فى حماية قواهم العســكرية.. وبالرغم من هذا لم تهدأ ثورتهم عليهم يوما.. وأيضــا لم يهدأ بطش المماليك يوما.. لم تحكم الخلافة ســيطرتها على البلاد بعــد بالرغم من المحاولات التى كثــرت.. للمماليك حماية وقوة عســكرية ليســت بالهينة.. والمحاولات الصليبية التى لا تنتهى سبب أدعى للتشــبث بهم.. وغض الطرف عن فظاعاتهم.. أدرك هذا الشعب المصــرى بالرغم من فقــره وحاجته حينها.. ومــن كان يضيق بأمرهم.. يرتحل بهدوء عن مصر أو إلى الصعيد الخاضع للحكم الهوارى.. المستقل أو شبه المستقل أحيانا..

كانــوا قوما أدعياء بحق.. يســرقون باســم الخلافة.. يقتلون باســم الخلافــة.. بأمر من الســلطان العثمانى.. بالرغم مــن أننا كنا نعرف أن ليــس للســلطان العثمانى ســطوة عليهم.. وفى حقيقة الأمــر كانوا فقط يســتمدون منه الشرعية كما اســتمدوها من الخليفة العباسى من قبله.. ولم يكن للخليفة حكم عليهم بل كان حبيس القلعة.. قليل الحيلة...

– تعرف يا شيخ.. لم يختلف الأمر عندنا كثيرا.. فاليوم لا خلافة.. لا حاكــم بأمر الله.. ولكن يحكمون باســم الله.. لم يدعوا غير التدين..

واخترعوا من الدين ما ليس فيه.. وجعلوا له شاكلة.. وجعلوا من أنفسهم فوق العباد.. يحلون ويحرمون.. يكفرون ويدخلون الجنة والنار...

– أستغفر الله يا بنى.. وأى ادعاء هذا.. لم ينقصهم غير أن يفعلوا كما فعل الحاكم بأمر الله من قبل.. أن يدعوا معرفة الغيب.. ثم ادعى أنه إله..

– أظنهم لو وجدوا سبيلا فلن يتأخروا.. تعرف يا شيخ فى العصر الفرعونى.. بناة الأهرامات.. كانوا يصنعون أوجهًا بشكل آلهتهم التى يعبدون.. يسرقون باسم الآلهة.. ويقتلون باسمهم ويستعبدون الناس باسمهم.. لا بل كانوا هم الآلهة تجسدت فيهم.. هكذا ملكوا.. فالأمر ليس جديدا...

– نعم يا بنى وفعل من بعدهم المجوس.. والنصارى فكره الناس حكمهم.. وكرهوا حتى الدين الذى كانوا عليه...

– دعنا نرجع إلى أمرنا..

اليوم ستجتمع العائلة فى بيت عمى.. بيت العروس.. لا أحد غير الأسرتين وجدتى.. فرحة محمود اليوم كبيرة.. فسيقدم للعروس مهرها اليوم.. وهدية بسيطة من الذهب على عادة أهل مصر منذ القدم.. هذا ما تمناه طيلة حياته.. أما ياسمين فتتزين وترتدى عباءة جديدة مزركشة مطرزة بالألوان من الحرير.. قد تكون العباءة من حرير.. هذه عادة يوم العروس.. ومحذور أن يراها العريس فى ذلك اليوم عادة اعتدناها كانت تقول جدتى إنه فأل سوء.. ويضرب بالدفوف.. ولا يختلط الرجال مع النساء أبدا فلكل مقامه.. ثم يليه يوم آخر يأتى فيه الناس يهنون

العريس فى بيت العروس ويقدمون الهديا.. أنا سعيد جدا بمحمود وأحمد الله أننى كنت أحد أسباب هذا الزواج السعيد.. مر اليوم الأول والثانى.. أعدت أمى وخالتى صفية طعاما كثيرا.. وأتى الناس من كل حدب وصوب من أغنياء وفقراء إلى مأدبة الطعام.. ثم أتى اليوم الثالث وهو يوم الحناء.. وهو يوم العهد.. يعهد فيه العريس للعروس أن يحسن معاملتها.. وتعهد إليه بحسن الطاعة والعشير.. فى ذلك اليوم أدهشنى شىء غريب.. شاهدت رقية ومعها امرأة مصرية بكل ما أوتيت من ملامح.. أظنها أمها.. هل ضاقت الحياة لتكون صديقة أمى.. من أين عرفت تلك المناسبة.. عادة ما تكون الدعوة فى الأفراح عامة.. ولكن خالتى صفية خرجت من المنزل تستقبلها وتقبلها.. على ما يبدو أنها تعرفها.. من الصعب أن تميز امرأة عن أخرى فى مصر غير أن تكون صغيرة السن فيظهر وجهها.. أما غير ذلك فلن تعرف أن تميز حتى أمك من بين النساء...

حل الأمر.. خالتى صفية تعرفها.. يا لفضل الله ورحمته.. لم يعد أمامى غير الغد.. يوم الفرح.. فى ذلك اليوم لم يشغلنى الفكر كثيرا.. فقد اطمأن قلبى وغير ذلك الانشغال بالفرح يلهنى.. فأشرف على الشربات والخيالة ممن أتوا يتصدرون الزفة.. وغيرها من الأمور.. سيسكن أخى محمود فى بيتنا الكبير خصصت أمى له الغرفة الشرقية الكبيرة التى كانت تسكنها جدتى قبل أن تنتقل للعيش مع عمى مالك.. جهزت تلك الغرفة بفرش جديد وسرير نحاسى.. جهدت أمى فى إعداد ذلك الأمر.. وبالطبع ساعدها إبراهيم وأشرف على ذلك عمى مالك بنفسه.. فصنع

دولابا خشـبيًّا.. وزخرفه بالصدف.. وكراسـى خشبية من الأرابيسك.. وعدنى أبى أن يكون لى مثل ذلك.. وسيعطنى الغرفة الغربية التى كانت معدة للضيوف.. وستخلو غرفتنا التى نسكنها نحن الإخوة إلى إبراهيم.. ولكنه لايزال صغيرا...

فى مرة سـألت أبى عن سـبب كره عمى للعطارة والتطبيب.. ولماذا لا يأتـى أبدا إلى الحانوت على الرغم مـن أن أبى كثيرا ما يذهب إليه فى حانوته على شـاطئ النيل.. وكان السـبب حكايـة لها العجب.. حكـى جدى إليهمـا وهما صغيران قصة عن أحد الأجداد فى زمن الملك العادل أخى صلاح الدين الأيوبى حيث انخفض النيل ومر بالبلاد قحط شـديد.. فأكل الناس الكلاب والقطط والـدواب والبغال.. حتى انتهت مـن مصر كلها .. فأكلوا الوحوش حتى انتهت أيضا.. ووصل الجوع إلى أن الرجل يذبح ابن جاره ويأكله ولا ينكر أحد عليه ذلك.. ويسـتدعون الأطبـاء للمريـض وما إن يصـل الطبيب إلى بيت المريـض حتى يذبح ويـؤكل.. ومـات فى هذا القحط خلق كثير حتى قيـل ثلثا أهل مصر.. وفى يوم ما استدعى أحدهم جدى هذا طلبا للتطبيب.. وما إن وصل إلى منزل المريض حتى شعر بالغدر.. وشعر أنه استدعى ليأكل.. فقام يجرى وخـرج مـن البيت هاربا ولم يفلت منهم إلا بعد عناء شـديد.. وقرر من يومها أن يغادر مصر إلى الشـام وألا يعود إليها أبدا... (انظر ابن إياس المصرى بدائع الزهور)

للتاريـخ غرائبـه وفى عصر الفقـر والذل لا تسـتطيع أن تحكم على القصـص أكانت حقيقة أم أنها مما يختلقه الناس من القصص.. وبالرغم

مـن مآسـاة القصة.. فإن شـر البلية مـا يضحك.. فحكى أبـى إلىَّ تلك القصة وهو يضحك.. فمن يومها يخاف عمى على نفسه وكره تلك المهنة وانصرف للنجارة بعيدا عن كل هذا الرعب الذى يواجهه كلما يتذكر تلك القصة المفجعة.. وكذلك انكشف السر الغامض فى كراهة عمى للعطارة...

مر يوم الزفاف سريعا كأية لحظات جميلة يحياها الإنسان.. ارتدى محمـود يومها لباسـه الأزهـرى الجديد.. وأتى النـاس من كل حدب وصوب.. وجاء زملاؤه فى الأزهر الشـريف والمشـايخ.. وأصدقاء الحى الحسـينى.. وتحاكـى الناس عن هذا الفرح.. وزفـت العروس إلى بيتنا وبيتها الجديد...

فـى الصباح أتـت خالتى صفية إلينا فى البيـت حاملة معها ألوان من الطعام اللذيذ للعروسـين.. ومعها حسـونة.. يرتـدى جلبابًا جديدًا مزركشًـا تظهر من تحته بطنه الممتلئ.. وأخذ يصب من لسـانه الملعون قباحات عدة.. وتسـاؤلات تومئ بسوء أدب.. لم أرد عليه احتراما لأمه التـى لم تعلق على الأمر.. ثم جاء يقف إلى جوارى.. يحاول ببذاءته أن يستفزنى كما كان يفعل دائما.. حاولت أن أحدث خالتى صفية بالأمر.. ليتنى أسـتطيع.. طلبت منى أمى أن آخذ حسـونة إلى الغرفة.. أعرف أمى وتلك النظرات العابسة.. فلقد ضاقت من هذا الحسونة.. ولكنى إن فعلت فلن تتسـنى لى الفرصة المنتظرة.. قلت لها اجعلى إبراهيم يفعل.. فهو يقف أمام البيت.. وكالعادة رفض إبراهيم حتى يفرغ إلى أصحابه.. فاضطـررت لأن أفعـل .. أخذته إلى الغرفة وفى الطريق قال لى أريد أن أخبرك بشىء خطير...

– ما الخطير يا حسونة؟

– بالأمــس فى الفــرح تواريت عن أنظار النســاء خلف الباب فلم ترنى واحدة منهن وشاهدت أشياء بديعة.. أتحداك أن تكون شاهدتها مــن قبل.. هل تعرف ماذا تفعل العروس ليلة الحناء.. كنت أســترق النظر وأعرف...

– ألا تخجل؟!.. كفاك..

– أنت هكذا دائما تخجل كالنساء..

– الحياء صفة المؤمن.. إن لم تستح فافعل ما شئت..

– أستحى.. هه.. وكيف ستتزوج؟ ستستحى من العروس أيضا ها..

– أف..

– تــرى ماذا فعــل أخوك بالأمس.. ليتنى كنــت هنا بالأمس حتى أسترق النظر إليهم...

– اسمع أيها الـ... الحسونة أنا ذاهب.. أبى يناديني.. انتظر هنا..

رجعت إلى حيث تجلس خالتى صفية فى ســاحة البيت.. فوجدتها دخلت غرفة العروسين تبارك لهما.. قلت أنتظر حتى تخرج.. لم ألبث قليلا حتى أتى حسونة.. وقال:

– تأخرت علىَّ.. يجب أن أبارك إلى أختى..

هم ليدخل الغرفــة بغير إذن.. فمنعته بلطف.. وطرقت الباب حتى فتحت خالتى صفية.. فقلت لها.. إن حسونة يريد الدخول.. فقالت له بنظرة غضب.. انتظر قليلا.. التفت إلىَّ وقتها وعاود قباحاته من جديد..

– بالأمس رأيت شعر رقية.. إنه أصفر ناعم..

– من رقية؟

– رقية ابنة زينب زوجة الدفتردار السابق منصور..

– كيف تنظر إلى النساء.. بهذه الحقارة والدناءة.. أترضاه لأختك..

– هه.. يبدو أنك مازلت صغيرا لا تعرف عن غرائز الرجال شيئًا..

– اصمت وإلا صفعتك.. ولا تفعلها ثانية وإلا قتلتك..

– قبل أن يبدأ الشجار بيننا خرجت خالتى صفية تحول بيننا.. وقالت:

– اهدأ يا حسن يا بنى.. أعرف أنه بذئ اللسان.. ماذا أفعل لك (إلى حسونة)؟

نسيت وقتها الأمر و كل ما قلته حينها..

– خالتى صفية.. أريدك فى أمر مهم.. لا أحدث به غيرك..

– خيرًا يا حسن يا بنى.. أعرف أن حسونة ضايقك ولكن ماذا أفعل له فى سنه هذه.. آه يا ولدى ليت جدتك لم تدلّه إلى هذا الحد..

– لا يا خالتى أريدك فى شىء آخر.. تعالى بعيدا..

دخل حسونة إلى أخته فى غرفتها.. فرحت من دخوله هكذا فمحمود فى غرفته كفيل به.. عله يعقل.. وذهبت مع خالتى صفية بعيدا عنهم جميعا..

– هل تعرفين الست زينب زوجة منصور بك؟

– الدفتردار السابق؟

– نعم..

– طبعا.. زينب كانت جارتى فى بيت أبى رحمه اللّه.. هى صديقتى..

– فى حقيقة الأمر يا خالتى.. أريد أن أتزوج ابنتها..
– أيهما شويكار؟ (قالتها بكراهة شديدة)..
– لا يا خالة رقية..
– ونعم الزوجة.. رقية مثل أمها زينب طيبة وأصيلة.. أما شـويكار هذه فربنا يهديها..
– أعرف هذا.. ولكن تعرفين أمى.. أريدك أن تفاتحيها فى الأمر..
– نعـم يـا بنى ولكن أختها شـويكار لم تتزوج بعـد.. كيف تتزوج أختها الصغرى إذا...
– شويكار هذه تكبرنى فى السن يا خالة..
– نعم يا بنى ولكن الأصول أصول..
– لا عليك من هذا الأمر فقط أخبرى أمى عن الأمر..
– حاضر يا بنى.. ليس عندى أغلى منك يا حسن..
– حفظك الله يا خالة.. ليتك تفعلين اليوم..
– أومأت برأسـها أى نعم.. وهكذا اقتربت من الوصول.. ولكن ليت أمى ترضى.. ودعوت يومها كثيرا اللهم اجعلها ترضى..
يومهـا لم أنس ذلك قط.. فى آخر الليل بعدمـا انصرف المهنئون.. نادتنى أمى وقالت:
– أبشر يا حسن.. خالتك صفية تعرف زينب أم رقية..
– حقا.. (مدعيا عدم المعرفة..)
– طلبـت منها أن تزورهم غـدا.. ولكن يا بنى إن أختها شـويكار لم تتزوج بعد..

– اسمعى يا أمى لقد حكى لى أبى عنهم كثيرا هو يعرف الدفتردار..

– نعم أعرف..

– فلِمَ تعترضين إذا؟..

– لا يا بنى لم أعترض.. ولكنى ظننتها تركية.. وأنت تعرف ما بهم من كبر..

– سأنتظر ما تقوله الست زينب فى الغد.. أنا متعب الأن وأريد أن أنام..

غلبنى النوم.. تعب جسدى طيلة اليوم.. وفى سحابة نومى العميق رأيت رقية تجلس على وسادة بيضاء.. تبتسم إلىَّ.. وترتدى شلحا أبيض فوق رأسها وكوفية زينت رقبتها.. ثم جاء حسونة يشد الشلح هذا فيظهر من تحته شعرها الأصفر كأنه سلاسل الذهب.. وهى تصرخ وتناديني وتستغيث.. استيقظت مفزعا.. وأيقظت من صراخى إبراهيم فقال:

– مالك يا حسن أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..

– لا شىء.. لا شىء.. خيرًا إن شاء الله..

– قم يا أخى توضأ لنلحق صلاة الفجر.. ها هو يؤذن..

إبراهيم أخى الصغير ولكنه من يحنو علىَّ دائما.. أحبه بشكل يختلف عن محمود.. فمحمود يخالطنى معه الحب مع الاحترام.. ولكن إبراهيم.. أشعر أننى مسئول عنه.. أحبه كولدى.. وهو صغير كنت أقف إلى جواره حتى ينتهى من لعبه فى الشارع مع أقرانه.. ولما كبر حاولت أن أجعله معى فى الحانوت.. ولكنه أبى ذلك فهو حساس عطوف.. لا يستطيع أن يرى آلام الناس أبدا.. يجعل ذلك فى نفسه

أثرا عظيمًا.. أخذه والدى معه إلى دار مريض فلما رآه بكى بكاء شديدًا.. ومــن يومها يكره الطب والعطارة.. عرض أبى عليه أن يكون مع عمه.. هــو الآن نجار ماهر حقا.. ولكنى أخشــى عليه.. فهو لا يســتحى أن يقــول فى أولاد الناس ما نخاف أن نقولــه.. يكره طغيانهم كما نكره.. ولكن لا يجرؤ أحد أن يذكر شــناعاتهم.. فهو محب للحق بطبعه يكره أن يُظْلَم إنســان ويســكت عن ظلمه.. كثيرا ما حاولت نهيه عن ذلك.. ولكنــه يغلبنــى بحجته دائما.. وأمى تخاف عليه جــدا أكثر منى ومن محمود.. فقد انقطع أملها فى الإنجاب تسع سنوات ثم جاء إبراهيم بعد عنت.. كادت أمى تموت عند ولادته.. وبالرغم من هذا لم يكن مدللا قط كحســونة هذا.. أشــعر أن الشيطان تصور فى صورة البشر فصار حسونة هذا.. سمته جدتى هذا الاسم.. وطبعا طبقا للطالع وطلاسمها التى تؤمن بها دوما...

مرت الأيام ســريعة.. حتى رأيت رقية قادمة إلى الحانوت.. وللمرة الأولى قالت:

– خالتى صفية كانت عندنا فى البيت وحدثت أمى..

– حدثتها عن ماذا؟

– تعرف.. (قالتها بحياء وأسف)

– وما رأيك..؟

– الرأى رأى أمى..

قالت ذلك وانصرفت خجلة.. أعلم أنها شــجعت نفسها كثيرًا حتى تقــدم على تلــك الخطوة.. ولكنها كانــت اللحظة التــى انتظرتها منذ

أشــهر.. أى نعيم هــذا الذى أنا فيه الآن.. اســتأذنت أبى الذى أدرك الأمر بفطنته المعهودة.. وذهبت إلى خالتى صفية أسألها عما قالت الست زينب.. فقالت:

– أبشــر يا حسن.. بالأمس حكت لى زينب أن شويكار هانم دخلت عليها وبصوت فيه نبرة الأمر والتعالى.. أن الأتبك على بك الانكشــارى طلب يد شــويكار وأنا وافقت على الخطبــة.. قالتها وانصرفت دون أن تسمع رأى زينب حتى..

– أحقا هذا؟

– نعــم يــا بنى.. اشــتكت لى زينب من شــويكار هــانم كعادتها.. وطغيانها على رأيها دوما..

– هل حدثتها بالأمر؟..

– نعم ألمحت لها.. ما رأيك أن يكون الفرحان معا.. رقية وشويكار

– هل هذا رأى خالتى زينب؟

– لا.. فقط أردت أن أقترح عليك..

– ليس عندى مانع ولكن هل ترضى شويكار هانم بذلك؟

– أسأل زينب إذا.. ستزورنى غدا.. وسأدبر الأمر فتقابل فتحية...

– اللهم سترك ورضاك..

– لا تقلق يا حسن دع الأمر لخالتك صفية..

– وجدتى؟

– جدتك تحب زينب.. وتعرفها جيدا..

– إذا لم يبق غير شجرة الدر..

– من شجرة الدر هذه؟

– لا عليك يا خالة.. أبدا.. أستأذنك..

أسرعت إلى الحانوت لأخبر أبى عما حدث.. و لما حكيت له الأمر.. قـال إذا أكلم منصور بك عن أمرك.. حتى لا يقول طغى رأى النسـاء.. ولكن رأت أمى غير ذلك فقالت له اصبر حتى تعرض زينب عليه الأمر.. كان ذلـك بعـد اللقاء المنتظر.. وهكذا رأى أمى فـى زينب.. إنها امرأة بسـيطة طيبة.. لم يغيرها حال زوجهـا الأول.. هكذا قالت.. ثم مالت علىَّ وقالت:

– حقا يا ابن فتحية رقية فتاة جميلة وبسيطة..

– هل رأيت شعرها يا أمى؟

– اختشى يا حسن عيب..

– لا ليس الأمر كذلك.. هل شعرها أصفر؟

– لا شعرها بنى مثل أمها.. (قالتها بابتسامة بدا عليها الخباثة)

– الكذاب..

– من هذا يا حسن الكذاب؟

– أبدا يا أم.. إنه.. إنه.. لا شىء..

– ولكن عينها زرقاء جميلة.. مثل عين أبيها البك سابقا..

اكتفيت بالابتسام.. أعرف أن شويكار هانم تلك سترفض هذا الأمر.. هـى تكره خالتى زينب وبنتها كما كانت دوما تقول.. فقط كل ما أريده أنها لا توقف الأمر من أساسه.. أو تقنع زوجها منصور بك أن يزوج زينب لبك آخر وليس ابن عطار.. هذا الحوار حكته لى رقية بعد زواجنا...

دخلت أمى غرفة البك وكانت فيها شويكار هانم تجلس على كرسى خشبى.. فقالت:

– سى منصور بك.. إن رقية جاء إليها عريس..

– عفاريم.. شوكوزال.. رقية بنت جميل (هكذا قال البك منصور)

– شويكار هانم: مين زينب العريس؟

– حسن ابن الحاج عبد الله العطار..

– منصور بيك: زوق.. رجل جميل زوق.. اعرف ربنا..

– شويكار هانم: كيف ترضى زينب.. رقية اتزوج رعاع..

– منصور بيك: اسكتى شويكار هانم.. أنا موافق.. زوق جميل مش رعاع..

– شويكار هانم: لكن بك..

– منصور بيك: سوس لا لكن أبدا.. شويكار تتزوج على بك الانكشارى.. أنا أكرهه.. هذا أتبك من أتابك ضدى.. أنت وافق عليه.. أنا أسكت.. لكن رقية لا.. رقية أتزوج ابن زوق..

– زينب: شكرا يا بك.. شكرا جزيلا..

– منصور بك: اسمعى زينب.. نخلص فرح شويكار.. وابعتى للزوق يجئ لمقابلتى..

– زينب: شكرا يا بك.. أدامك الله علينا..

فى تلك الليلة ظلت شويكار هانم تصرخ فى وجه البك منصور طيلة الليل.. كنت سعيدة جدا يومها.. فتلك هى المرة الأولى التى يرفض أبى لشويكار هانم طلبًا.. أما أختى شويكار فقد جاءت إلىَّ تبارك ولكن

بكبريائها المعتادة.. و رأسها المرفوع دائما.. أحيانا كانت شويكار تخجل أن تقـول إن أمها زينب ابنة التاجر البسـيط.. وكأنها صدقت أن أمها شـويكار هانم فعلا.. ولكنها لم تسـتطع أن تتغلب على ما فى داخلها من مشـاعر.. وكثيرا مـا يغلبها الطابع المصرى علـى التركى.. ولكنها تدارى الأمر دوما.. أعرف شويكار جيدا.. أعرف ما تريده.. وأعرف أن بداخلها خيرا وطيبة.. ولكنها تقاوم بكل ما أوتيت من قوة.. أما شويكار هانم فكثيرا ما كنت أتساءل ما سبب كل هذا الكره نحوى.. ماذا صنعت حتى تكرهنى هكذا؟!!.. تعرف منعت أمى من الإنجاب بعدى بدعوى أنها لا تنجب غير بنات.. وكانت تقول أمى إنها كانت تتمنى أن أكون ولدا.. ولكن الله خيب ظنها...

كل ما تمنتـه خالتى زينب فى الحياة أن تزوج ابنتيها من مصريين من بنى جلدتها.. فقد كرهت حياة الترك وتعقيداتها.. البساطة أسلوب الحيـاة المصرية منذ أقدم العصور.. لا يعـرف المصرى التكبر أبدا.. بل يرضى بالقليل هكذا كنا دائما يا بنى...

لما عرفت أمى الأمر باركته.. ولم يتأخر أبى فى الأمر وذهب إلى البك فى بيته.. فقابله أحسـن مقابلة.. وامتدحه كما كان يفعل دائما بألفاظه العربية غير المسـتقيمة «زوق جميل».. مرت الأيام سريعا وزفت شويكار هانم الصغرى لبيت زوجها الذى كان يكبرها بعشـر سنوات.. على بك الانشكارى كان أحد المماليك ممن وشوا بمنصور بك.. ولكن شويكار هانم أصـرت أن يتم هذا الزواج.. ورفضت كما توقعت اقتراح خالتى صفية.. فهى تنظر إلينا كمصريين بنظرة دونية.. كأغلب الأتراك والجراكسـة..

كان إبراهيم يقول دوما.. كيف يدعون خلافة الإسـلام الذى ساوى بين الناس ويجعلون من أنفسـهم فوق الناس.. بالرغم من أننى كنت أوافقه الرأى فعلا.. لكنى كنت أنهره خوفا عليه...

تعهد إبراهيم عندما سمع الأمر أن يصنع لى أثاثا كأثاث البشـوات.. سعد محمود كثيرا بذلك وكذلك ياسمين.. فهى تحب رقية.. فقد كانت لها أختًا تكبرها بثلاث سـنوات وماتت فى صغرها من الحمى.. فكانت ترى فى رقية عوضا عن أختها تلك.. خالتى صفية أنجبت الكثير ولكن لم يعش غير ياسمين وحسـونة.. سمعت جدتى تقول إنها حملت تسع مـرات.. وبالرغم من ذلك كانت امرأة راضية مؤمنة.. وكانت دوما تدعو أن يعوضهـا الله ذلـك فى الجنـة.. وربت ابنتها ياسمـين على الخلق والصلاح.. أما حسـونة فجدتى كانت تدلله كثيرا حتى فسـد.. فعدته خالتـى صفية بلاء ودعت أن يعوضها الله عنـه بزوج صالح لياسمين.. يكون لها بمثابة الابن.. فكان محمود أخى...

هـا هو حلمـى يتحقق فقط لم يبق غير شـهر واحد حتى تجهز فيه الغرفة كمـا رتبتها أمى فى خيالها.. ولم أعرف بعد تلك الفرحة فرحة مثلها قط فى حياتى الطويلة...

* * *

(٧)

لكم انتظرت تلك الليلة وجعلتها فى أحلامى.. مر الشهر بطيئا جدا.. قابلت خلاله للمرة الأولى منصور بك.. كان مرحا كريما جدا معى.. حتى إننى شككت فى أمر البكاوية هذه من تواضع هذا الرجل وبساطته.. ربما لم يكن هذا طبعه قبل الزواج بزينب.. بالرغم من سطوة شويكار هانم التى أثرت فيه لدرجة كبيرة فإننى التمست فيه روح زينب.. هى كذلك تكن له الحب والاحترام.. عندما سألت أمى لماذا تصبر الست زينب على ذل شويكار هانم أليست زوجته مثلها ولها نفس الحقوق؟.. قالت لى إننى بدأت أفكر مثل إبراهيم.. عله على حق.. لا بل هو على حق بين لا ريب فيه.. خلق الله الناس كأسنان المشط سواسية.. فلم يجعلوا من أنفسهم أسيادًا وعبيدًا.. ولكنى فهمت يومها لماذا يصر الناس على مناداته بلقب البكوية بالرغم من حرمانه منه.. كنَّ الناس فى صدورهم له احتراما وتقديرا.. فجعلوا البكوية منحتهم له بدلا من التى حرمته منه الاستانة فقط تلبية لرغبة شيخ البلد الجديد...

وبعد انتظار طويل جاءت الليلة الموعودة.. أصر منصور بك على أن تكون احتفالا كبيرا يحضره سادة الناس.. حتى إنه دعا شيخ البلد نفسه.. بالطبع لم يحضر ولكن كثيرًا من الأتابك حضروا.. ومن بكوات البلاد ممن بقى بينهم وبين البك ود.. وطلب أن نزف بعربة على بك النشانجى فوافق على كراهة ذلك.. تزينت يومها بعباءة طويلة أهداها إلىَّ أبى كان قد اشتراها من الحجاز.. مزركشة جميلة.. وجلباب أبيض

زين ببعض من النقوش على الصدر.. أما رقية فقد ارتدت فستانا على الطراز التركى استعارته من شويكار أختها.. أو لعلها أهدته إليها قبل أن تذهب لبيت زوجها.. لا أذكر فقط أذكر أنها كانت أحلى امرأة رأيتها.. نسيت فى هذا اليوم كل أحزانى وكأن الدنيا انتهت إلى ذلك اليوم.. جهزت الغرفة كما عهد إبراهيم وأمى.. على خير حال.. واشترت أمى سريرًا نحاسيًّا جديدًا كالذى أحضرته لمحمود.. أما محمود فقد كان هذا اليوم سعيدا كأنه تزوج من جديد.. قال لى الشيخ مسعود فى مجلس العلم عندما فسر آيات المودة والرحمة.. من مات دون أن يتزوج فما زار تلك الحياة أبدا...

فى تلك الليلة نمت وكأننى ذهبت بعيدا إلى عالم آخر.. لم أشعر بشىء إلا بحبى الجارف.. وبالرغم من حيائها فقد كنت أشعر من خلاله بالحب أيضا.. فى ليلتنا الأولى طلبت إلى عهدا خاصا.. قالت:

– هل تحبنى حقا يا حسن؟

– لن أجيب عن هذا السخف..

– باللّه عليكِ..

– أبعد هذا تسألين.. طبعا أحبك..

– إذًا فعاهدنى ألا تتزوج غيرى أبدا..

– وهل جننت.. حتى أفعل هذا؟!

– تعرف دوما كانت تدعوا لى أمى ألا تكون لى ضرة أبدا..

– وهل تكره أمك شويكار إلى هذا الحد؟.

– الهانم؟.. لا أبدا بل هى من تكرهها..

– رأيتها اليوم وهى فى ساحة البيت وكأنها ستنشق نصفين من الغيظ..

– لا عليك منها.. دعها وشـأنها.. أما طلبى الثانى.. آه.. إذا رزقنا بولد تسميه أنت.. أما إن كانت بنتا فأنا أسميها..

– وماذا تسميها..؟.. شويكار؟ (قلتها مازحا)

– وكيف عرفت؟

– أحقا؟

– نعم..

– تريدين أن تسميها.. شويكار؟

– هذا شرطى..

– بالطبع قبلت.. وهل أستطيع أن أتفوه بعدك أيتها المستبدة؟

– لا لست كذلك.. أنا أحب أن آخذ بالشورى..

– ليتـك تحكمين بدلا من شـيخ البلد.. كشـجرة الدر.. اسمعى إن لشجرة الدر تقديرا خاصا عند أمى حذار أن تتحدثى عنها بسوء أبدا..

– إنها مثل جدتك.. إذا..

– تقصدين أم على..

– نظرت إلـىَّ بدهشة ثم سرعان ما فهمت الأمر بفطنة وذكاء تعجبت لهما فى حقيقة الأمر.. ولكنه أعجبنى.. نذرت يومها أن أصلى ركعتين صلاة شكر على هذه المنة.. ولكنى نسيت...

فـى اليوم التالى كما كان الأمر يوم زفاف محمـود.. جاء المهنئون.. وجاءت خالتى صفية وخالتى زينب.. وجاءت شـويكار هانم.. ترتدى

فستانًا رائع الفخامة.. وفى يدها عصا منقوشة تتكئ عليها.. جاءت آمرة كعهدها بهدية إلى رقية.. وقالت:

– رقية هدية ذهب البسيها فى عيد..

وأخذت تسرد فى أوامر ووصايات عن الهدية.. لم تطل المكوث.. فقامت من مجلسها ونظرت لخالتى زينب وقالت:

– أنت زينب هيا..

– نظرت إليها خالتى زينب بنظرة تعجب وقالت:

– لا سأظل مع ابنتى يا هانم.. استأذنت البك فى ذلك..

أومأت برأسها وانصرفت رافعة رأسها فى شموخها المعهود.. جلست خالتى زينب تحكى عن قصصها مع الهانم.. وبالرغم من كل ما تلاقيه منها لم ترفع التكليف قط.. ثم أخذت تشتكى إلى رقية حالها من بعد ما تزوجت وفرغ عليها البيت هى وشويكار هانم.. ثم غلبها البكاء وكذلك رقية.. شعرت وقتها بالحرج.. فقررت أن أدعهما قليلا.. وخرجت من الغرفة إذ بخالتى صفية ومعها الشيطان.. كيف أصرف هذا الوغد.. خطرت لى فكرة سديدة.. أضع له فى الشربات عصير نبتة تسبب الإسهال.. أمى تستخدمها فهى كثيرا ما تعانى من معدتها.. رحبت به على غير العادة.. وبالغت فى الترحيب حتى قلت له سأعد لك الشربات بنفسى.. ذهبت بعيدا وأخذت زجاجة الدواء معى ليكون له داء.. ثم أحضرت الكوب بيدى وأعطيته.. أما خالتى صفية فكانت مشغولة مع أمى وخالتى زينب.. بدأ فى قذارات لسانه كالعادة.. ولا يبدو على وجهى التغير.. بل ابتسم كلما يقول شيئا ولا أجيب.. وما إن فرغ من شرب الكوب هذا.. حتى نظر إلىَّ يصرخ ويقول:

– معدتى آه.. إنها تؤلمنى كثيرا..
– كيف هذا يا حسونة..؟
لا أعرف إنها تتقطع..
– لا تقل هذا يا رجل.. تصبر..
– أين الحمام؟..
– أتريد الحمام؟ لماذا؟
– أية سخافة تقول.. أين الحمام؟
– هناك عند آخر البيت..

ركض إلى الحمام.. وأنا أقف عند الباب أسمع صراخه فى الداخل.. وعندما تأكدت أنه لــن ينتهى عن قريب تركته.. ورجعت إلى الغرفة.. رآنــى محمــود عندما وضعت له الدواء ولكــن لم ألحظه.. وفى رجوعى إلى الغرفة نظر إلـىَّ وهو يضحك بشــدة.. فلم أســتطع أن أكتم ضحكى أنا أيضا.. ثم انصرفت إلى الغرفة ودخلتها وأنا أضحك.. سألتنى أمى:

– مالك يا حسن.. اللهم اجعله خيرًا.. لم هذا الضحك؟
– قلت لها أبدا.. فقط تذكرت شيئا..
– أين حسونة؟
– إنه فى الحمام (قلتها متماسكا)

ثــم سمعــت صوتا.. إنــه محمود يقــول بوصول جدتــى.. إنه لأمر غريب.. أســرعت نحــو الباب وقبلت يدها كعادتــى.. أتى معها عمى مالك.. وجلســنا معًا فى ســاحة البيت نأكل.. ونتســامر كأنه العيد.. كان يوما جميلا وأجمل ما فيه أنه بلا حســونة.. فلقد قضى طيلة اليوم

فى الحمام.. حتى نسـوه وانصرفوا فـى آخر الليل.. أما هو فغلبه النوم ولم نعـرف بوجوده إلا بعد العشـاء بعدما انصـرف الجمع.. سمع أبى صراخه.. فعلم الأمر فأتى له بدواء للإسهال.. شربه وانصرف إلى بيته.. مازلت أضحك كلما ذكرت ذلك اليوم...

فى تلك الليلة جلست معها أحدثها عن الشعر.. عرفت أنها لم تحظ بتعليـم كأختها.. ولكن حرمتها شـويكار هانم من ذلـك.. حتى تتفرغ لشـئون البيت.. ولكنها على أية حال راضية بذلك.. فكنت أفسره لها وأشـرح لها المعانى.. من شـعر الأندلس الغابر.. كانـت تطرب إليه.. وللمرة الأولى أعرف معنى السـمر.. لا مثل مـا كان يدور بينى ومحمود أو إبراهيم من كلام خشن يخلو من هذا الشجون.. عرفت معنى ألا تكون وحيدا فى شـجون.. معنى المودة والرحمة... السكن والأنس بالحبيب.. ثم قال:

– قل لى يا بنى.. هل تزوجت؟

– لا..

– وكم عمرك..

– ستة وعشرون...

– لا.. اصدقنى القول..

– أنا أصدقك القول.. والله..

– وكيف هذا؟.. لم لا تتزوج..

– دعنا لا نتحدث فى هذا الأمر..

– هل أنت مريض؟

– لا يا شيخ.. لست مريضا.. ولكن الأمر تبدل..

– كيف؟

– اسمع يا شيخ.. فلنكف عن هذا من فضلك.. فللأمر عندنا حسابات أخرى..

– لا حول ولا قوة إلا بالله.. كما تشاء..

قسمت أمى الأدوار ما بين رقية وياسمين بالنسبة لشئون البيت.. ولم يخل الأمر من بعض التحكمات.. هكذا هو شأن النساء.. ولكن رقية امرأة عاقلة.. أو لعل أمى مهما صنعت فلن يكون مثل ما كانت تصنعه شويكار هانم.. فرضيت بالأمر وتعايشت معه.. أما ياسمين فكانت كثيرا ما تشكو لمحمود.. ولكن محمود لا يملك أن يواجه أمى.. فتشكو إلى خالتى صفية.. فتقول لها يا بنيتى لا تكونى شكَّاءة.. انظرى إلى رقية كيف تفعل.. هذا أعلى من شأن رقية على ياسمين عند أمى.. وجعل بينهما بعض الغيرة.. ولكن سرعان ما ينصلح الأمر بين رقية وياسمين.. فتغلبهما عشرة الأيام فتتصالحان...

يوم الخصام الكبير الذى وقع بينهما.. رأيت دموع رقية للمرة الأولى.. دخلت الغرفة فوجدتها تبكى وتنتحب كالأطفال.. اقتربت منها حثيثا.. ودنوت من أذنها وقلت لها:

– هل سقطت الشمس من السماء.. حتى يبكى هذا القمر؟

– لم تجب عن السؤال.. نظرت إلىَّ بعينها الدمعة.. سماء زرقاء ملأتها قطرات المطر.. أسقطت رأسها على صدرى.. شعرت أن جزئى المفقود قد رجع إلىَّ بعد غياب.. بهذا أشعر بمعنى الحياة.. فجعلت

أمسح على شعرها.. حتى هدأت.. ثم رفعت رأسها وبدأت فى الاعتذار عن البكاء..

– هل أزعجك الأمر؟

– لا بل كنت سأطلب منكى أن تبكى ثانية..

نظرت إلىَّ بابتسـام وهى تمسح دمعاتها.. ثم انتبهت إلى يدها حيث نسيت فحل البصل والسكين.. فأردت أن أهون عليها بدعابة..

– هل كان بكاؤك من هذا البصل؟

قامت من فورها.. وهى تضحك وتقول:

– لا فقط نسيته.. سأذهب أكمل الطعام..

فـى تلك الليلة بدا على ياسمين المرض وشـحب وجهها.. كان هذا بادرة خير وأمل.. فبشـرت أمى محمود أن زوجته حامل.. جرت رقية ونسـيت كل فعلات ياسمين وصراخها فى وجهها الدائم.. تبارك لها.. هكذا كنا يا بنى.. الأمور بسـيطة.. يسـرنا على أنفسنا فيسر الله علينا الدنيا والآخرة...

مرت أشـهر .. ولم يجعل الله لنا نصيبا فـى الخلف بعد.. وعندما لاحظـت أمـى ذلك.. قلت لها ما لك يا أم أليسـت الأرزاق بيد الله؟.. فامتنعت عن الخوض فى هذا.. وضعت ياسمين طفلا سماه أبوه عبد الله.. على اسم أبى.. خيرًا فعل محمود لو كنت مكانه لفعلت...

اقترب ميعاد الخروج للحج.. أعد أبى عدته وحاول أن يمنع جدتى أن تكـون معه فى تلك الرحلـة فأبت إلا أن تذهب.. جمع أبى المال.. وقال أقسـم بينكـم بالعدل هذا.. فـإن مت فقد أبـرأت ذمتى منكم..

تســاءلت لم تلك المرة التى يفعل ذلــك.. لا أعرف ربما ليجعل لنا أمنا بعد الزواج.. ثم أوصى من بعد ذلك وقال: أما عن الحانوت فهذا بينكم فــإذا أدركنى الموت.. فبينكم بالعدل لا يطغى أحدكم فأعذب فى قبرى بذلك.. قاطعته أمى:

– أطال الله بقاءك يا أبو محمود.. لا تقل هذا..

– يا أم محمــود ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾..سورة لقمان الأية ٣٤ (قالها شارد النظر)..

نظــرت إلى وجه أمى وقد تغير.. كأنها تخشــى شــيئا.. ربما على جدتى فهى امرأة هرمة.. قد ضعفت وطغى عليها الكبر.. سمعتها كثيرا تحــذره من أمر ســفرها.. هل تعاود التحذير.. ولكنهــا لم تفعل.. ربما يكون هناك أمر بينهما لا أعرفه...

جاءت ليلة السفر.. نظرت إلى رقية نائمة.. كأنها ملاك.. ولكن يبدو على وجهها الشــحوب والتعب.. نعم أرهقت نفسها إلى جوار ياسمين.. ولكن جبينها يتصبــب عرقا.. حرارتها مرتفعة.. ناديت أمى وأخبرتها بالأمر.. خرجت من الغرفة وتركتها مع أمى.. ثم قالت:

– مبروك يا حسن.. رقية تحمل طفلا..

– أحقا يا أمى؟

– نعم.. إنها البداية..

– رقية: أريد أمى يا حسن.. أنا مريضة وأحتاج إليها..

– نعم.. فى الصباح سأذهب أودع والدى والجدة وأرسل فى طلبها..

غمرتنى سـعادة من نوع آخر.. سعادة أن تكون أبا.. رِأيت تلك السعادة مـن قبل فى وجه محمود.. ولكن الشـعور بها مختلف.. لم أدرك الأمر فى أوله.. ولكنى أحاول أن أتفهمه..

فـى الصباح طلعت قافلة الحج والتجـارة للحجاز.. أعدت العربات والخيـول والجمـال.. وانطلقت الرحلة راشـدة.. بقيـادة إسماعيل بك الخازندار أمير الحج.. وقبل الانطلاق قال لى أبى:

– أمك أمانة عندك يا حسن..

– لا أفهم يا أبى.. أمى فى بيتها مكرمة..

– ستفهم فى حينه..

– سأفتقدك يا أبتِ..

– وأنا أيضا.. ولكن اعلم أن اللقاء قريب مهما طال الزمان.. أستودعك الله الذى لا تضيع عنده الودائع..

هكذا كانت كلمات أبى قبل الرحيل.. قبلت يد جدتى.. ثم انطلقت الرحلة إلى الصحراء.. تقبل الله منهم.. الآن أنادى خالتى زينب.. ذهبت إلى البيـت.. وجدت عربة يجرها الخيل وعليها حوارنى أو عربجى كما كانت تقول شويكار هانم.. طرقت الباب.. فتحت خالتى صفية..

– أهلا يا حسن تفضل..

– لا يا خالة يجب أن أسرع فلم أفتح الحانوت بعد..

– خيرا يا ولدى..

– رقية حامل..

– حقا.. الحمد لله استجيبت دعواتى.. مبروك يا حسن..

– بارك الله فيك.. هى تريدك.. يبدو عليها التعب..

– نعم.. سأذهب عندما تنتهى شويكار هانم لتجهيز نفسها.. ذاهبة لزيارة شويكار الصغرى..

– وهل تذهبين معها؟

– لا.. كنت هناك بالأمس.. لا أحب زوجها هذا.. متكبر..

– لا عليك يا خالة.. يهدى الله عباده إن شاء..

– نعم.. ونعم بالله.. لن أتأخر يا بنى.. سألحق بك..

نظرت إلى الداخل فإذا بشويكار هانم تقف متكئة على عصاها المنحوتة.. فأستأذنت خالتى زينب وأسرعت فى الانصراف...

مرت بعدها شهور.. وصلت إلى الحانوت وجدت شاكر صديقى القديم.. منذ كنا فى الكتاب معا.. شاكر مولع بالأخبار والقصص.. يحفظ الكثير منها ويعرف من أخبار التاريخ.. لذلك يبدو عليه الوقار بالرغم من أنه حداد.. كان يهتم بهندامه ومظهره الأنيق.. ويضع العطور.. أجد فيه الأخ والصديق نجلس ساعات فى الحديث ولا نمل..

هكذا بدأ الحديث بيننا..

– أين أنت يا رجل منذ تزوجت وأنا لا أراك أبدا.. هل شغلتك العروس عنا؟

– لا أبدا.. اجلس يا شاكر..

– شكرا.. هل علمت بما حدث البارحة؟

– أى أمر هذا؟.. أى خبر عن محمد بك جركس.. على كل حال فلقد هرب من مصر..

– لا هذا الأمر فات عليه شهر يا حسن.. ألا تعرف؟!!.. لا حديث للعامة غير هذا..

– أى شـــىء جديد؟.. علك تقصد انتهاء الرياســة فى يد ذى الفقار بك وعلى بك الهندى..

– أى عار هذا الذى نحن فيه.. يحكمنا هندى!!

– هل تعرف أنت أن محمد بك قطامش جاء مصر من الديار الرومية.. ولم يتمكن من الدفترداية.. بسبب هذا الهندى..

– نعــم عرفــت هذا من إبراهيم أخيك.. لكن مــا قصدته ليس هذا.. بالأمــس اجتمعت القاسمية عند محمــد بك أبى العذب.. ولعبت الخمر بعقل مصطفى بك ابن أيواظ. فتلفظ بأشياء مخجلة.. وقال يموت العزيز ويصير الهندى مملوكنا سلطان مصر..

– وهل سمع على بك الهندى بذلك؟

– نعــم وصله الأمر وقال إنه قاتله لا محالة يوم جير البحر.. أعرف أنه يدبر شيئًا آخر.. لن ينتهى الأمر أبدا بذلك..

– رحماك يا رب.. أية غابة تلك!!.. ألا تكف أيدى هؤلاء من الدم؟

– من عرف طعم الدم لا يدعه أبدا يا حسن..

– نعم..

– ألا توجــد أخبار عن قافلة الحج بعدما رجع إسماعيل بك وتولاها عبد الله بك؟

– لا.. أبدا.. من المنتظر أن تصل القافلة الشهر القادم..

– تصل بأمان الله...

– ستصل بعدما أصير أبا.. فأمى تقول إن زوجتى أوشكت على الولادة..

– مبارك لك يا حسن..

– بارك الله فيك..

– أستأذنك.. أتفقد الورشة.. قرب أذان العصر..

– تفضل..

علـى هذه الحـال يكون حديثى مع صديقى القديـم.. فى هذا اليوم فـى الليـل رأيت رؤيا غريبـة.. أتى أبى الحاج عبـد الله يرتدى لبس الإحرام.. ويحمل طفلا على يده.. وقال: مبارك لك يا حسـن ما رزقك الله.. اعذرنـى يـا بنى علىَّ أن أذهب.. قلت: إلى أين يا أبتِ.. فقال: جـدك يناديني.. وانصرف عنى بعدما أعطانى المولود فى يدى.. ناديته حتى أسـأله عن جدتى فلم يجب.. اسـتيقظت فإذا بأذان الفجر يرتفع من مسـجد الحسين.. قمت من فورى لأتوضأ.. عله خير.. أخشى على الجدة كثيرا.. سـترك يا سـتير.. فى الصباح جلست للفطور.. وحكيت لأمى الرؤيا.. نظرت إلـىَّ بدهشة.. ثم قالت:

– لا تخبر أحدا يا حسن بتلك الرؤيا..

– خيرا يا أمى..

– رأيت رؤيا أخرى.. جدتك تسـير فى صحراء متعبة ويتصبب من جبينهـا العرق.. ثم اسـتأذنها أبوك وقال أذهب أنا يـا أم.. فقد حان الميعاد.. وانصرف عنها وظلت تسـير فى الصحراء والشـمس تحرقها.. حتى سقطت أرضا...

– لا حول ولا قوة إلا بالله.. أنا لله وإنا إليه راجعون..

سمعت صوت صراخ شديد من غرفتى.. إنها رقية.. قمت من فورى نحــو الغرفة فى الطابــق الثانى.. كنت أصعد الســلم فتتعرقل قدمى.. وبعــد عناء وصلت ورأيت ياسمين وهى تقول نادى القابلة يا حســن.. إن رقية تلد...

صعــدت أمى بخطــوات واثقة.. ومســبحة طويلــة ولم تخلع عنها طرحتهــا حتــى.. وقالت تعجل يا حســن.. ذهبت مســرعا.. فالقابلة الســت أم الهنا تسكن آخر قريبا.. فى ذلك الشارع المؤدى فى آخره إلى باب زويلة.. ما إن طرقت الباب عليها حتى بادرتنى بقولها نعم أجهز حاجاتى وآتى معك.. لا تخف يا بنى خيرا إن شــاء الله.. أشياء كثيرة تستخدمها.. حملت عنها الأشياء وأوقفت عربة وقلت للحوارنى أوصلنى إلى الحسين سريعا وأعطيك ما تشاء.. وصلت إلى المنزل.. صعدت القابلة بخطــى واثقة.. وهدوء تام.. نظــرت إلىَّ وقالت أبق أنت هنا.. وأغلقت باب الغرفة.. أجلس أمام الباب على دكة خشبية قد وضعت.. أنظر إلى السماء أدعو.. وأسمع صراخ رقية فيتمزق له قلبى...

خرجت أمى من الغرفة هادئة ثم نظرت إلىَّ مبتسمة ابتسامة هادئة.. وقالت لا تخف يا حســن.. الأمر بسيط.. كانت لا تزال تضع الحجاب الطويل على رأسها.. وممسكة مسبحتها الطويلة.. لم يكسر هذا الهدوء.. غير صوت المولود صارخًا.. لم أســتطع ساعتها أن أمسك دمعات عينى الذارفــة.. فهمت وقتها لمــاذا كان يبكى محمود يــوم ولدت ياسمين.. خرجــت ياسمين حاملة الطفل بيدها.. ثم قالت مبارك لك يا حســن..

بنت جميلة كأمها.. سـمِّ الله.. سميت وحملتها بيدى.. كأن شيئا منى كان مفقودًا فى مكان لا أعرفه فعاد إلىَّ.. أى حنان فى ضم تلك الصغيرة إلى صدرى.. فى الحقيقة كانت أمى تتمنى أن يكون المولود ولدا.. ولكن بالنسـبة لى لم أهتم بالأمـر.. انتزع قلبى من مكانـه عندما رأيت يدها الصغـيرة وهى تتحرك للمـرة الأولى.. وتمصمص شـفتيها.. ثم أخذتها ياسمين مرة أخرى منى.. لترضعها أمها.. هكذا قالت...

خرجت القابلة من الباب وقالت: إن زوجتك ضعيفة تحتاج للراحة.. أومأت لها برأسـى.. وأعطيتها ما شـاءت من المال.. دخلت الغرفة إلى رقيـة.. وعلى جبهتى الابتسـام.. كانت تحمل الصغـيرة إلى صدرها.. نظـرت إلى الصغيرة وهى تضع فمها الضئيل على ثدى أمها .. شـعرت حينهـا أن للحيـاة وجهًا آخـر لم أكن أعرفه.. تاه عنـى منه الكثير.. اقتربت منها ببطء حتى لا أزعج الصغيرة.. قالت:

– لا تحزن يا حسن فى المرة القادمة سيكون ولدا إن شاء الله..

– هششششششششششش.. ما الذى تقوليه؟

– ألست غاضبا؟.

– غاضب!!.. وهل هذا وجه غاضب؟

– أعرف أن خالتى فتحية كانت تريد ولدا....

– هششششششـش.. كفاك يـا رقية ترهات.. لم أعرف سـعادة كاليوم قط.

– ما هذا؟.. دموع!!.. هل تبكى يا حسن؟

– هل تنسمت عبير الجنة يوما؟

– كيف هذا؟

– هذا ما أنا فيه الآن.. (جلست إلى جوارها على السرير.. ووضعت يدى على رأس الصغيرة وتلمست شعراتها التى لا تزال صفراء قليلة)

شـاهدت ذلك رقية.. بدهشة غريبة.. وكأنها كانت تتوقع مثلا أن أئد تلـك الصغـيرة عند ولادتها.. كم هى صغيرة أحلام النسـاء.. وخاصة فى عصـر الجهل هذا.. أعرف أن أمى حزينة فعلا لهذا الأمر.. ولكننى عادة ما كنت أضحك من ذلك.. وأنظر إليها وأقول يا أم «يهب لمن يشـاء إناثًا ويهب لمن يشاء الذكور».. عاودت من جديد لومها.. هكذا هى رقية دائما..

– كفـى مـا تقولينه هذا.. أَوَ قـد عدنا إلى الجاهليـة؟.. هذا فضل من الله..

نظرت إلىَّ بعينها التى تأخذنى.. وشـعرها المنسدل الأشعث فى كل مكان.. وقالت:

– مازلت عند وعدك..

– نعم.. هى كما تشائين..

– وأنت ماذا كنت تسميها؟

– إن كان الأمر بيدى أسميتها رقية..

– حقا يا حسن؟

– طبعا.. وهل لى أن أقول غير هذا؟

كفكفـت دموعهـا التى بدأت فى الانغمـار.. رفعت فم الصغيرة عن ثديها.. ثم وضعتها فى يدى.. وقالت اختر لها أنت اسما كما تشـاء.. تبسمت وقلت لها:

– ألم نتفق؟

– بلى.. ولكن هكذا أنا.. أرجع فى كلامى دوما..

– تعرفين.. لو أعطيتها إلى أمى فستسميها.. فتحية..

قلتهـا مازحـا.. ولكن الأمر حقيقـى.. أعرف أمى جيـدا.. ولكن سـأتحمل ثورتها.. فسـرعان ما تخمد.. فى نظرى اسـم فتحية اسـم لا يليق بطفلة أبدا..

ضحكـت رقية من ذلك ووضعـت يدها على فمها حتـى تكتم تلك الضحكات.. كانت إذا ضحكت تضم كتفها.. كطفل يضحك.. ثم قلت:

– إذا هى على اسم الهانم.. ربما تكون هانم فى يوم من الأيام..

– شويكار.. اسم جميل على اسم خالتها..

– بالرغم من أن خالتها خذلتك.. فسـمت ابنتها جلبهار.. أى اسم هذا.. ألم يكن من الأفضل أن تسمها فتحية مثلا؟

– واللّه إن سمعتك يا حسـن.. فسـيصير أمـرك إلى القاضى (قالتها وهى تضحك)

– إذا كيف أخبرها بهذا الخبر.. لنا اللّه..

خرجت من الغرفة قاصدا أمى التى جلسـت على المشـربية.. عادة عن جدتى غريمتها أم على حفظتها دون أن تدرى أو لعلها تدرك الأمر وتنكره.. آه لم أذكر لك.. كان اسم جدتى ياسمين.. وهكذا اختارت اسم ياسمين أيضا.. فسـيكون الأمر صعبا بالنسبة لى أن أقنعها باسم شويكار هذا.. جلست إلى جوارها.. وقلت لها:

– كيف حالك يا أم؟

– مالك يا حسن.. آت ما عندك..
– ما رأيك بالمولودة.. أليست جميلة؟
– نعم جميلة مثل أبيها..
– أخجلت تواضعى يا أم..
– ما رأيك يا أم أن تسميها؟
نظرت إلىَّ نظرة الخبــث المعهودة منها.. وأمعنت النظر فى عينى.. ثم قالت:
– ماذا؟؟.. اخترت اسما لها؟؟
– نعم.. شويكار.. ولكننا سنناديها فتحية..
ضحكت أمى.. ضحكة عميقة من القلب.. ثم قالت:
– تعجبنى خباثتك يا بن فتحية..
– أية خباثة يا أمى..
– تعرف.. لم أكن سأختار لها فتحية على أية حال.. فتحية.. هذا اسم قديم.. تعرف.. أنا لا أحب هذا الاسم..
– ولكنى أحبه.. وأحبك يا شــجرة الدر (قبلت يدها ومسحت على رأسى وظننت أن الأمر انقضى على هذه الحال)..
– نعم.. تعرف شجرة الدر.. اسم جميل..
– لا.. شجرة الدر.. حرام عليك يا أم.. وهل هذا اسم؟
– فكر فى الأمر..
– لا.. شويكار أحلى..
قمت من فورى.. إلى الغرفة قبل أن تصر على هذا الاســم.. ورجعت غرفة رقية.. وقلت لها:

– اختارت أمى اسما آخر للمولودة..
– أى اسم؟.. فتحية؟؟ (سألت بلهفة)
– لا بل... بل.. شجرة الدر..
– ماذا؟
– نسيت كل شىء من ألم.. وضحكت حتى الدموع.. حتى إن صوت الضحك أيقظ المسكينة شجرة الدر الصغيرة.. فقلت لها:
– لا.. نامى أيتها المستعصمية العظيمة..
– توقف يا حسن.. أشعر بالألم كلما أضحك..
– طيب.. أنا ذاهب الآن إلى الحانوت.. عله خير إن شاء الله.. سأرسل إليك بما طلبت.. هل من شىء آخر؟
– لا.. شكرا (قالتها كما كانت تقولها عندما تأتى الحانوت طالبة الباخور لأمها.. مع هزة الكتف عادتها تلك التى مازالت تحافظ عليها).. ثم قالت:
– آه.. لا تنس أن تسرع فى طلب أمى..
– أرسلت إليها منذ باكر ألم تصل بعد؟
– لا..
– أومأت لها رأسى وانصرفت إلى الحانوت....

* * *

(٨)

يــوم آخر إلى أفول.. تأخرت قافلة الحج.. عله خير إن شــاء الله.. بدأت الشــمس فى المغيب.. اســتعددت لأغلق الحانوت.. اســتوقفنى شاكر.. يناديني من بعيد..

– يا حسن.. يا حسن..

– خيرا.. يا شاكر ما بك؟

– قتل الباشا محمد أبو العزب بك..

– أليس اليوم يوم الديوان؟

– نعم.. خرج الباشا إلى ديوان قيتباى.. وقتله وأخذ كل ما عنده فى الخزائن.. صلاة جنازته فى مسجد الظاهر برقوق.. تعال معى..

– هل من أخبار عن على بك الانكشارى؟

– لا أعرف عنه شيئًا..

ذهبنا إلى المســجد وصلينا على هذا الرجل ودفناه فى القرافة.. ولكنى لم أكن مرتاحا قط.. أحس بشىء فى صدرى نحو هذا الرجل.. أما على بك فعرفت أنه اعتزل فى بيته.. فلقد خاف على نفسه من هذا الصراع.. خاف من مصير منصور بك.. فيسلبونه ما يملك وضيعه.. فيعيش على الكفاف...

هكذا دوما تصير الأمور عند المماليك.. لا ينفك من صراع حتى يشب آخر.. وما أن ينتهى من قتل حتى يكون فى آخر.. أصحاب السلطة فى شــغل عن الناس.. كما أن الناس فى شغل عن السلطة.. بسوء أحوالهم وبالانشغال إلى أرزاقهم.. فيضيع الحق بينهم...

فى عودتى إلى البيت.. وجدت إبراهيم أخى وقد كله التعب.. فسألته:

– ألم تذهب لتصلى على القتيل؟

– وهل مثل هذا يصلى عليه؟!

– الله أعلم..

– ونحن؟؟

– نحن لنا الظاهر..

– وظاهره كان سكيرا يشرب الخمر حتى يسقط.. ويلعب بالحظ حتى يفلس.. ويجرى وراء النساء والجوارى..

– دعك من هذا الأمر.. ألا توجد أخبار عن قافلة الحج؟

– يقول عمك إنها وصلت إلى العريش منذ أسبوع..

– عله خير..

– نعم.. عله كذلك..

وصلنا إلى البيت.. وجلسنا من فورنا على مائدة العشاء.. ثم ذهبت أصلى العشاء.. ورجعت إلى البيت حتى أخلو للعب مع شويكار.. بدأ يستقر شكلها.. تشبه أمها كثيرا.. ولكنها أخذت عنى العين.. ليتها أخذت عين أمها.. تبارك الخلاق.. وجهها الصغير حين يرانى يبتسم.. تداعب يديها وقدميها طيلة الوقت.. وكأنها تجرى فى عالم لا نعرفه نحن.. ملىء بالسعادة.. أحب أن أقبل تلك اليد الصغيرة.. وأحملها إلىَّ فأشعر بالحنان.. لا أفلتها من يدى طيلة وجودى فى البيت.. فقط لترضع.. ثم أعاود حملها من جديد.. فى الليل عندما تبكى.. أستيقظ من فورى فتهدأ.. عندما أضع يدى على صدرها الصغير.. تهدأ وتنام...

فى عمر الإنسان هناك أيام تمر سريعا.. وتنسى حالك فيها.. وكأنك لم تحيها أصلا.. كذلك كانت أيامى التالية.. لا أذكرها.. فصراع المماليك مستمر.. وصراع الحياة مستمر.. والحب مستمر.. والغدر مستمر.. وكذلك الحال إلى قيام الساعة...

* * *

وصلت القافلة المنتظرة على مشارف القاهرة.. رحلة طويلة وشهور طويلة جدا.. علم عمى مالك بأمر وصول الرحلة.. فأسرع بالخروج إليها.. انقطاع الأخبار عنها لأشهر شىء يثير القلق.. فرحلة الحج القادمة أوشكت على الخروج.. بينما الأولى لم تعد.. أعرف أنهم سيمرون على الشام والعراق ويجوبون الأرض من أجل تجارتهم.. ولكن عشرة أشهر فترة طويلة...

لحقت بعمى إلى القافلة على مشارف القاهرة.. وصلت إلى القافلة ثم سألت أين الشيخ عبد الله العطار.. نظر إلى الرجل الذى سألته.. وقال:

– أنت ولده؟؟

– نعم..

– عظم الله أجرك..

بالتأكيد إنها جدتى.. طالما تمنت أن تموت فى الحج.. غمرت الدموع عينى ولكن سرعان ما استعدت رباطة جأشى وسألته:

– أين؟

– إنها هناك عند تلك الخيمة..

ظننته يشير إلى الناقة.. وجدت محمود يجلس أمام تلك الخيمة.. ويبكى..

– محمـــود مالك يا أخـــى؟.. لماذا أتيت إلى هنـــا؟.. ليس بعادة أن تستقبل الـ.....

– عظم الله أجرك يا حسن مات أبوك فى الحج..

لم أدرك الأمر فى أوله.. فقلت:

– تقصد جدتك؟؟

– لا يا حسن.. جدتك بالخيمة تلك أعياها المرض وطول السفر..

– كيف هذا؟.. لم يكن مريضا.. كان بخير.. كان بخير يا محمود..

– هذا قضاء الله يا أخى لا راد لقضائه..

لم تحملنـــى قدمى بعد هذا الخبر.. ســقطت على الأرض أجلس إلى جوار محمود.. أبكى بشـــدة وأقول ســبحان الله.. وأعيدها.. حتى ربط جأشـــى.. وقمت إلى الخيمة أطمئن على جدتـــى.. دخلت الخيمة فإذا بعمى مالك يمســـك يدها.. يقبلها.. وهى تخبط بيدها على يديه.. وهى ممددة على الأرض تحتها فراش من صوف أحمر...

– كيف حالك يا جده؟

– الحمد لله يا بنى على كل حال (قالتها بصوت عيى متعب بشدة.. كادت الكلمات تخرج من فمها)

– نعم.. الحمد لله..

– أوصانى أبوك بشئ أقوله لك..

– خيرا..

– يقول لك: إياك أن تترك أرضا عشت فيها.. واصبر على الفتن..

بالطبـــع لم أفهم وقتها.. قلت لعله مرض قبل أن يموت رحمه الله.. علمـــت بعدهـــا ماذا قصد.. وكأن الله كشـــف له عمـــا لا أعرفه وقتها..

سـبحان الله.. غريبة تلك الحياة.. لا تستطيع أن تدرك أحوالها أبدا.. فهـى بين يد الرحمن يقلبها كيف يشـاء.. لكم تمنت جدتى أن تموت فـى الحـج.. وخرجت لذلك ولكن شـاء الله أن يجعـل الأمر على غير ما أرادت.. خيرًا فعل أبى.. دفن فى مدينة رسـول الله كان هذا يجعل من الأمر بردا وسلاما على قلوبنا...

قلت له:

– وكيف صنعت جدتك (عيناى تغمرهما الدموع)

– هذا كل العجب يا أخى.. بعد ما دفنت أبى أكملت الحج.. وأبت إلا أن تكمل الرحلة..

– تجوب البلاد معهم؟؟!!

– نعـم.. فعلتهـا وباعت ما حمـل أبى معه من بضاعـة.. ورجعت بالنقـود.. وبالرغم من الأهـوال التى أخرت الرحلة من عواصف الصحراء والحر الشـديد رجعت تسـلم الأمانة إلى أهلها.. فـكان لعمى نصف هذا المـال.. وكان لنـا النصف الآخر.. من كان معها فـى الرحلة من الرجال عجبوا من قوة تلك المرأة.. كانت دوما تقول خلق الخلق من طين.. وصنعت من الصخر.. الفطرة السـليمة التى فطر الناس عليها تهدى دوما الإنسان إلى حيث شاء ربه.. عرفت أنها ستموت بعد تلك الرحلة لا محالة.. فهى الآن مريضـة جدا.. وكل مـا تتمناه الآن أن تعود إلى بيت عمى.. فتموت بين أحفادها.. وهذا ما صنعناه.. حملناها إلى بيت عمى مالك...

العجيـب كيـف تلقت أمى الخـبر.. نظرت إلىَّ.. ثم سـقطت على الأريكة التى خلفها.. وقالت:

– كنت أعرف.. كنت أحاول أن أكذب نفسى..

– هدئى من روعك يا أمى (قال محمود)..

– نظرت إلىَّ بدهشة وقالت:

– الرؤيا يا حسن.. الرؤيا..

– نعم يا أمى..

– عرفت منذ هذا اليوم.. ولكنى كنت أخشى أن أقول بشىء فأبشر به..

– رحمه اللّه..

– رحمك اللّه يا أبو محمود.. دعونى الآن أريد أن أكون وحدى..

لن أكذب فأقول إننى لم أسمع بكائها طيلة الليل.. بل كل البيت قد سمع.. جاءت خالتى صفية إلى البيت.. وحاولت مرارا أن تدخل غرفتها ولكن دون جدوى.. فاستأذنت لتعود إلى جدتى فترعاها...

فى الصباح وفد الناس من كل مكان يعزون.. جاء من نعرف ومن لم نعرف.. ولم ينقض هذا الحزن.. حتى اليوم الثالث.. دخل عليها محمود وقال لها يا أمى إن جدتى تريد أن تراك.. دون أن تتكلم ارتدت عباءتها السوداء.. وذهبت مع محمود إلى جدتى حيث ترقد على فراشها.. نظرت إليها وغمر الدمع عينها.. وقالت:

– يا فتحية يا بنتى.. عبد اللّه جاءنى فى المنام وقال: أخبرى فتحية أننى فى خير مكان.. لا تبكى يا فتحية هذا يؤلمنى..

أمسكت عينيها من الدموع وقالت لها:

– كيف حالك يا أمى؟

– وفيــت وكفيــت يا بنيتــى.. لا تصدقى أننى كنــت أكرهك يوما يا فتحية.. فالدنيا هينة يا بنيتى..

– نعم.. نعم..

– احمــدى الله يا بنيتى.. وادعــى لى الله أن يرحمنى من هذا الألم والعذاب..

– لا يا أم.. ستصيرين بخير.. سنشرب القهوة على المشربية معًا..

– ليت هذا يكون.. ولكن قرب الأجل يا فتحية..

كانــت تلك الزيارة بالنســبة إليهــا كالماء الذى أخمد جــذوة النار المستعرة.. أى أثر سحرى من تلك المرأة العجوز.. حقا لكى لا يعلم من بعــد علم شــيئا.. أو ربما كما كانت تقول كلمــا كبر المرء علم أنه أصغر مما يتوقع...

مر أســبوع واحد فقط.. وجاء حســونة يخبرنا.. أن الجدة قد لقيت ربهــا.. كان هذا يوم الجمعة صباحا.. نــودى لصلاة الجنازة بعد صلاة الجمعة فى مسجد الإمام الحسين.. وصلى عليها خمسون ألفا.. احتشد النــاس مــن كل حدب فى المحروســة.. كانت النــاس تعجب من هذا الحشــد الكبير.. سبحان الله.. ظلت تلك القصة تروى حتى بعد مماتها بعشرين عاما.. أنا أذكر ذلك كنت أسمع الناس يحكونها وكأنها أسطورة من كتاب ألف ليلة وليلة...

تعلمت من تلك المرأة الكثير.. وتعلمت أن الإنســان العظيم لا يسعى لأن يكون عظيما بالقدر الذى يســعى أن يحقق هدفه فى الحياة فيصير عظيما.. والحياة دول يا بنى كما أنها لا تدوم أبدا لأحد مهما عمر...

يوم مماتها سمعتها خالتى صفية تقول: أنا قادمة يا سـيدة.. قادمة يا بنت رسـول الله.. الحمد لله.. هانت الدنيا.. كم تعبت منها.. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله...

كفى حديثا فى هذا الأمر يا بنى.. كفى...

* * *

(٩)

غدا يوم آخر.. اليوم نحن أذلاء.. أما غدا فسيأتى شىء جديد مع باكورة الصبح.. سأبدأ الأمر من هناك.. الإسكندرية بلدة جميلة وجمالها وحشى.. أهلها كرهوا حكم الترك وتحكماتهم.. إلى متى سنكون أسيادًا وعبيدًا؟!.. لا يا حسن.. لن أظل أخفض رأسى كلما رأيت مملوكا.. أنا سيد نفسى.. أيجعلنى الله سيد هذا الكون.. وأذل نفسى لهؤلاء العبيد؟!!...

كانت تلك محاضرة إبراهيم إلىَّ عندما ناقشته فى أمر سفره إلى الإسكندرية تاركا كل شىء خلفه.. فالإسكندرية سطوة المماليك فيها ليست كالقاهرة.. لطالما كانت الإسكندرية جبهة دفاع عن مصر من ناحية الشمال .. والمماليك يخشون من أهلها ثورتهم التى تتكرر كثيرا.. فى عام ١١٤٤ من الهجرة قرر إبراهيم أن يذهب إلى الإسكندرية جاعلا منها جبهة مقاومة للمماليك.. هكذا سماها.. وعندما سألته وأى المماليك تقاوم فهم كثر؟.. قال ليس علىَّ أن أقاوم شخصًا ولكن أنا أقاوم فكرًا.. كيف نرضى بأن يظل مصيرنا ومصرنا بيد هؤلاء السكارى... (ذكر الجبرتى فى اليوميات أن فى هذا العام عزل عبد الله باشا وأمراء مصر وتولى محمد باشا السلحدار)

عنفته أمى كثيرا.. كيف تتركه إلى المجهول.. قالت له: يا بنى إن كنت ذاهبًا لتعيش فيها فأنت حر.. أما الذى تحكى عنه فهذا شىء لا أتحمله.. فهؤلاء نزعت من قلوبهم الرحمة.. ألا ترى ما يفعل بعضهم

ببعض.. فكيف بك وأنت من العامة يا ولدى.. وكان رده أنه ليس وحده بـل معه الكثير.. وأنه ذاهب مع الشـيخ عبد الغفـار القاضى.. التفت محمود إليه وقال:

– الشيخ القاضى؟

– نعم.. هو يا محمود..

– قالت: أمى

– تعرفه يا محمود؟

– محمود: هذا أستاذى يا أم.. رجل صاحب علم ومقام.. ولكنى أخشى عليك يا إبراهيم فالمماليك لن يدعوه أبدا.. فكثيرا ما كان يعترضهم...

– هذا قرارى يا شيخ محمود.. لن أتراجع عنه..

كان هـذا آخر قوله.. وانصرف عنـا.. وقبل الفجر أعد عدته وخرج من فوره.. أحسست به قبل أن ينصرف.. قمت من فورى.. وجدته فى مدخل البيت يجهز نفسه...

– إبراهيم؟

– حسن؟

– هل عزمت الرحيل؟

– نعم.. توكلت على الله..

– اسمع يا إبراهيم.. لقد صرت رجلا ومسـئولاً عن نفسـك.. ولكنك كنت لى بمثابة الولد.. أتذكر يوم كنت تلعب مع الأولاد وسـقطت على الأرض وكادت عربة الباشا تدهسك..

– نعم يا حسـن.. يومها رميت نفسك فوقى وسحبتنى بعيدا (قالها وعيناه تذرفان بالدموع)

– أمك يا إبراهيم.. تخاف عليك..

– أعرف هذا.. والله أعرف.. ولكن أنا ذهبت جهادا فى سبيل الله..

ثم أنشد بيتين للإمام الشافعى:

سأضرب فى طول البلاد وعرضـ ها أنال مرادى أو أموت غريبـا

فإن هلكت نفسى فللـه درهـا وإن سلمت كان الرجوع قريبـا

– إذًا عدنى أن يكون الرجوع قريبا..

– إن شاء الله.. أعدك..

– أستودعك الله يا ولدى.. فلا تضيع عنده الودائع أبدا..

نظـر إلـىَّ نظرة أخيرة وعينـاه تذرفان بالدمع.. حتـى بلت لحيته الصغيرة التى بالكاد نبتت متأخرة.. وانصرف.. كان هذا مفجعا بالنسـبة لأمى.. ولكن ماذا عليها أن تصنع سـوى الدعاء.. إبراهيم عنده الحق فى كل كلمة.. والشيخ عبد الغفار رجل صالح ومعلم جليل.. عينه محمد بك بـن أيواظ قاضيًـا للقضاة.. ولما حكم بين الناس عدل فصار الناس يلجأون إليه فى شـئونهم.. فعلا صيته بينهم.. فخشى محمد بك من ذلك.. فدبر له مكيدة بأن أرسل إلى السلطان فى الاستانة.. يوشى بأحد الرجال فحكم عليه السلطان بالإعدام.. ولكن القاضى رفض هذا الحكم.. فقد تبين له أن الرجل برىء من تلك التهمة الشـنعاء المنسوبة إليه.. فلما فعل ذلك عزله محمـد بك من منصبه.. فصار يعلم الناس فـى الأزهر.. ويبين لهم الحق من الباطل.. وأن الناس سواسـية كأسنان المشط.. ويبين لهم ظلم المماليك

ومجونهم.. فصـــاروا يضيقون عليه خاصة.. عندما كثر أتباعه وكان منهم أخى إبراهيم.. يحضر مجلس علمه وينهل من علمه.. فلما ضيقوا عليه قرر أن ينطلق إلى الإسكندرية وتبعه كثير من مريديه إليها ومنهم إبراهيم...

كان وقع هذا الرحيل على أمى صعبا شـــديدا.. مرضت بعدها مرضا شـــديدا وكانت خالتى صفيـــة تزورنا كل يوم تقريبـــا حتى تطمئن على صحتها.. ولكن بعد مدة شـــفاها الله واســـتجاب لدعائنا.. ولكن لايزال يعاودهـــا الحزن.. كلما ذكر أحدنا إبراهيم.. أو تذكرت أنه لن يعود إلى البيـــت.. كانت دوما تقـــول: ليته تزوج قبل رحيله حتى.. كنت أتمنى من الله أن أرى له ولدا...

ذات ليلة.. دخل محمود علينا وفى يده ورقة.. قال:

– يا أمى.. إبراهيم أرســـل خطابـــا.. جاءنى اليوم أحد من أصدقائه وقال هذا منه..

نظرت إليه أمى.. متشككة فى الأمر.. مرت خمس سنوات ولم يرسل بشىء.. كانت تخشى أن يكون محمود من كتبه.. عندما أرفق بحالها.. ولكن أقســـم محمود لهـــا أن هذا ما حـــدث.. وأن إبراهيم أرســـل هذه الرسالة.. ثم قرأ الرسالة...

أمى الحبيبة.. عز علىَّ فراقك يا أم.. ولكن الأيام ستثبت أننى كنت محقا عندما تعود مصر حرة وليســـت أســـيرة لعبيد.. بلا ظلم.. أرسلت إليك هذا الخطاب أبشـــرك بخير خبر.. لقـــد تزوجت يا أمى وأنجبت طفلا.. أسميته حسن.. أنا سعيد فى الإسكندرية.. فهى كالعروس زينها البحر.. ســـلامى إلى محمود وحســـن وياسمين ورقية.. وكل من عندك.. وسأرسل إليك كلما سنحت الفرصة.. ابنك إبراهيم بن عبد الله العطار..

كانت تلك رسالته القصيرة.. كانت بردا على قلب أمى.. بالرغم من شكوكها التى ظلت قائمة.. حقا هى لا تقرأ الكلام.. ولكنها تجيد قراءة العين.. بارعة الفراسة تعرف ما تريد قوله حتى قبل أن تنطق به.. وبعد تكرار قسمات محمود لها.. وأن الخطاب أرسل على اسمه فى الأزهر الشريف.. صدقت الأمر.. وكانت تسأل محمود كل يوم تقريبا هل أرسل أخوك خطابا؟...

فى تلك السنوات رزقنى الله بفيروز وفطيمة وإبراهيم أسمته أمى.. ليكون على اسم عمه الغائب الحاضر.. كان فى ذلك تسلية لحزنها.. وأنجب محمود عبد الرحمن وعمرو وعلى وفاطمة.. لذلك اختارت رقية فطيمة.. حتى لا يختلط الاسمان معا...

مرضت رقية بعد مولد إبراهيم.. كادت تموت وهى تلده.. ولكن الله سلم.. يومها كاد عقلى يطير.. دعوت الله أن يشفيها كثيرا.. كنت أجلس إلى جوارها طول الليل أقرأ القرآن وأدعو وأبتهل.. استجاب الرحمن لحالى.. فهو أعلم كيف أكون بدونها.. ستعرف يا ولدى يوما ما أعنيه.. أنا لا أتحمل أن أعيش بدون تلك اليد الرقيقة تخبط على ظهرى فى الشدائد.. هذا الأنس الذى تلجأ إليه فى وحشة الليل.. عانيت من الوحدة ومن فراق الأحبة بعدها.. وهذا يا بنى عذاب الدنيا بل أشد العذاب...

كنت أحفظ الشعر حتى أقوله لها.. كانت تطرب لذلك.. كالطفل الذى يفرح بلعبة جميلة.. كانت تحب الموشحات الأندلسية.. قالت لى فى يوم:

– تعرف يا حسن أتمنى أن أذهب معك إلى الأندلس..

– أبعد زوالها يا رقية؟!

– لا.. هــذه أمنية.. نجلس فى حدائقها وتغرد لنا الطيور كما كانت تفعل لـ..

– ابن زيدون..

– نعم.. هذا..

– بــل تكونين أنت ملكة مثلا.. ملكتــى الجميلة.. وأنا ملك فيها.. وآخذ اسمى من حروف اسمك.. كما فعل المعتمد بن عباد..

– أو فعل هذا..؟؟

– نعم.. كانت زوجته اسمها اعتماد.. وسمى نفسه المعتمد..

– وأنت.. أسمى نفسى الرقى مثلا..

ابتسمت ابتســامتها المعهودة.. وســرحت فى سماء عينيها كالعادة وأنشدتها هذا:

أيا لك نظـرة أودت بقلبـــــى وغادر سهمها قلبى جريحـــا

فإما أن يكون بهـا شفائـــــى وإما أن أمـــوت فأستريـــــح

– إياك أن تقول هذا أبدا.. بل يجعلنى الله أموت قبلك بأعوام..

– وأهون عليك أن أكون وحيدا؟

– لا.. ولكنى لا أتحمل الفراق..

أعرضت عــن الأمر.. فلا أحب مثل هذا الكلام.. ولا أحب أن أفكر فيه حتى...

* * *

اعتدت أن أصلى فى رمضان بالأزهر الشـريف فأجلس لبعض العلماء أسمـع دروس العلم.. حتى جاء هذا العام.. شـاهدت فيه من أعاجيب عصرنا.. قام رجل فى المسجد وقال:

أيها الناس.. أنا رسول الله.. جئت إليكم لأبين لكم الظلمات والنور وأهديكم إلى سبيل الله.. جاءنى جبريل ليلة ٢٧ من رجب.. وقال إننى رسول مرسل إليكم فاتبعونى..

تهامـس الناس من حوله.. ومنهم من قـال أنه مجنون.. ومنهم من قـال أحقا هذا.. ومنهم من صدقه وقال آمنت بك أيها الغريب.. ثم قام العلماء من الأزهر يسـحبون الرجل من ملابسه وألقوه إلى الشيخ العماوى شيخ الأزهر فى ذلك الوقت.. فقال:

– ما بالك أيها الرجل؟

– كنت فى شربين.. وجاءنى جبريل وعرج بى إلى السماء ليلة سبع وعشـرين من رجب.. وصليت بالملائكة.. وأذن لى جبريل.. ولما فرغت مـن الصلاة أعطانى جبريـل ورقة وقال أنت نبى مرسـل.. اذهب بلغ الرسالة واظهر المعجزات..

– أيها المخبول.. أنت مجنون كذاب..

– لا لست مجنونا.. إنما أنا نبى مرسل..

– وأين معجزاتك أيها النبى؟ (سأله باستخفاف)

– سيحدث زلزال عظيم بعد ثلاثة أيام..

– زلزال؟ هاه..

– نعم «إذا زلزلت الأرض زلزالها»..

– قف.. قف.. اضربوا هذا المجنون وأخرجوه من المسجد ولا تجعلوه يدخل إليه أبدا..

بعد هذا بأربعة أيام جاءنى شاكر إلى الحانوت وهو غاضب..

– مالك يا شاكر؟

– جن الناس يا حسن..

– أعلم هذا منذ زمن بعيد..

– تمزح؟!

– وماذا أفعل؟

– مــرت على لعنة هذا الكــذاب أربعة أيام.. وبالرغم من هذا الناس تصدقه.. يقولون أن هذا من سيخلصهم من ظلم المماليك

– وهل رجع فى كلامه وأجل الزلزال؟

– تمزح مرة أخرى..

– اسمع يا شاكر.. الناس جهال.. لهم العذر.. فالفقر يجعل من الوهم شيئا يتمناه الجميع.. فيتخلص مما هو فيه من العذاب وشقاء الحياة..

– تعرف.. أرسل إليه عثمان كتخدا..

– وماذا سيصنع به؟

– لا أعرف.. هل تظن يناصره أيضا..

– لا طبعا.. سيرسله للمارستان..

كان هــذا أقل ما يفعــل.. ثم مر يوم آخر فوجدنــا جمعًا من العامة من جهال وفقراء أضناهم الفقر.. يجتمعون عند المارســتان ليخرجوا هذا الرجــل.. فأخرجوه.. وأخفــاه الناس عن الأعين.. حتى طلبه الباشــا

فظهــر.. فكان منه مثل قوله الأول.. فأمر بحبسـه فـى العرقانة ثلاثة أيــام.. فلم يغير قوله.. فجمع له العلماء علــه يتوب.. فلم يغير.. فأمر بقتله وقال له: إن كنت صادقا فخلص نفسك من هذا.. فقتل وهو يقول: اصبر كما صبر أولو العزم من الرسل.. ثم ألقوه بالرميلة ثلاثة أيام جثة...

ثم أخبر هذا المدعى أنه إن قتل فسـيكون يوم القيامة يوم السـادس والعشرين من ذى الحجة.. وكان يوم جمعة فصدق الناس هذا.. فخرجوا يودعــون بعضهم البعض.. ويعدون الأيــام الباقية لهم فى الدنيا.. ومنهم من خرج يشــرب الخمر فى المتنزهات ويلعبون الحظ قبل فوات الأوان.. ومنهم من تاب عن ذنوبه وقام الليل وأخذ يدعو الله أن يغفر له.. كان من هؤلاء أمى.. بالرغم من قسـمات محمود لها بكذب الرجل.. فإنها أبت إلا التصديق.. وجاءنى شاكر وقد اعتلاه الحزن والبؤس الشديد.. فقال:

– باقى يومين يا محمود..

– يومين؟!!.. هل أنت مسافر؟

– تمزح ويوم القيامة بعد غد..

– بل سأمزح ويوم القيامة الآن..

– أسـتغفر الله العظيـم.. اغلـق الحانوت يا محمـود واذهب وصلِّ واستغفر الله..

– لا حول ولا قوة إلا بالله..

– هل تظننى جننت..

– نعم بل تأكد لى الأمر..

– إذا جئت أودعك.. وأدعو الله أن يهديك سواء السبيل..

– يا شـاكر الرجل كاذب.. مرت أشـهر ولم يحـدث أى زلزال قط وكذلك يوم القيامة هذا...

– لا تقل هذا يا حسن.. عليك أن تبجله.. أسأل الله ألا تموت على هذا..

– انصرف يا شاكر.. الآن.. ونتقابل يوم السبت إن شاء الله..

انصرف شاكر.. وهو يدعو الله أن يهدينى إلى سواء السبيل كما يقول.. أما رقيـة.. فقالت بفطرتها.. وإن كان يوم القيامـة غدا.. فماذا نصنع.. المهم إننا سنموت معًا.. أنا أصلى ولا أفعل ذنوبا أو ما يغضب الله...

أمـا عـن خالتى زينب وخالتـى صفية.. فلم تختلفا عـن أمى كثيرا.. فخالتـى صفيـة تصدقت بكل ما عندهـا من ذهب أو طعـام فى البيت.. وخالتى زينب تركت كل شىء من يدها.. وجلست تقرأ القرآن.. أما محمود فـكان لا يكف عن الضحك أبدا كلما جاءه أحد يسـأل عـن يوم القيامة.. فيقول: لم يخبر به الله رسوله وأخبر هذا المجنون.. أى خرف هذا؟!!

مـر يوم الجمعة بسـلام.. والناس فى بيوتهم يرجفون.. اسـتيقظت صباحا وفتحت الحانوت.. ولكن الشـارع قـد خوى إلا ممن كذبوا هذا المدعى.. جلسـت أمام باب الحانوت وقد سـطعت الشـمس فى السماء وهبت ريح خفيفة كالنسـيم.. لم يأت واحد يطلب شـيئًا فى هذا اليوم قـط.. أغلقت الحانوت بعد المغرب كعادتى.. وعرفت يومها من محمود أن الناس معتكفون فى بيوتهم وبعضهم فى المساجد.. وفى اليوم التالى.. بعـد الفجر ذهبـت إلى أمى فى غرفتهـا وجدتها تجلس إلى المشـربية وتشرب القهوة.. قلت:

– ما هذا يا أمى.. هل متنا وبعثتِ تشربين القهوة؟!

– لا أيها الشقى لم يحدث شىء.. (قالتها بابتسامة صفراء)

– لا تقولى هذا يا أمى.. بل نحن متنا..

– كف يا حسن عن هذا..

– عليك الآن أن تتوبى من ذنبك يا أم.. أتصدقين مجنونًا؟؟

– أستغفر الله العظيم وأتوب إليه..

– هل نفطر اليوم.. أم إن الأموات لا يأكلون؟

قامت مــن مكانها خلفى.. تريد ضربى بالقبقاب.. جريت منها كما كنت أفعل وأنا صغير.. وأصرخ وأقول:

– ما بك يا أمى.. هل أشبه شجرة الدر إلى هذا الحد.. فأقتل بالقبقاب؟!

وهــى تضحــك.. وتلحقنى على مهــل.. فقد بدأ الهرم يســدل عليها أســتاره.. وضعفت ساقاها فصارت تســير على مهل.. استيقظ البيت على هذا المشهد.. وضحك الجميع.. ثم قال محمود: أمسكه لك يا أم مثل سابق عهدنا...

أعددنا الفطور.. وكانت أسعد الناس يومها رقية.. فدنت منى وقالت جعل الله لنا أيامًا أخرى يا حسن.. ضممتها إلى صدرى.. وقبلت رأسها ونســيت العالم من حولى.. فنظرت إلى أمــى بعينها علنى ألحظ.. ولكن لم يقطع هذا.. غير نحنحة محمود التى ارتفعت.. بابتسامة خرجت من البيت بدعوة أمى المعتادة...

ذهبت إلى شــاكر فى حانوته.. فلم أجده.. قلت أنتظر حتى يأتى.. جــاء متأخرًا يؤخر قدمــه عنى.. يحاول أن يتوارى فلا ألحظه.. ناديته بصوت عالٍ.. أيها الشبح السائر هناك تعال.. قال:

– السلام عليكم يا حسن..
– وعليكم السلام أيها الشبح.. كيف أصبحت؟
– أصبحت تائبا عما بدر منى..
– وهل يتوب الميت.. مضى زمن التوبة أيها الرجل الطيب؟
– كفاك يا حسن.. غرنى الشيطان..
– أتشـرب القهـوة؟.. أم أنك فـى الجنة تطلب ما تشـاء.. أما أنا فمسكين مازلت فى الدنيا..
– وهل فى الجنة يشربون القهوة يمنية أم تركية (قالها ضاحكا)؟!
– نعم.. نسـى أن يقول لنا رسـول الله الذى هو من شربين هذا قبل أن يقتل.. بالحق يا شـاكر.. أكنا سـنحج إلى شـربين.. وتصبح شربين المنورة؟!

فى غمرة الضحك الذى انتابنا.. نادى منادٍ أن الشيخ فلان يقول إن الأولية شفعوا لنا ليؤجلوا القيامة.. نظرت إلى شاكر وقلت له:
– على ما يبدو أن الجمعة لم يكن مناسبا للأئمة.. ربما يوم الثلاثاء..
– إذًا بقى ثلاثة أيام يا حسن (قالها مازحا)..
– عد أيها المخبول إلى حانوتك.. هيا..
– كان الأمر بالنسبة لى أرضًا خصبة للمزاح والضحك...

* * *

(١٠)

بين الحـــين والآخر تذهب رقية لزيارة أهلهـــا.. وأحيانا قليلة تزور أختها شويكار.. خاصة بعدما اعتزل زوجها السياسة.. حكم على نفسه ولم ينتظر أحدهم ليحكم عليه.. فيعزله كما ســاعد هو فى عزل منصور بك من قبل.. كثيرا ما يكون هذا هو الحل الأفضل بالنســبة لرجل علم من شــئون السياسة ما لا يعرفه غيره.. هكذا كانت دوما تقول شويكار.. وتحمد الله أنه لم ينتظر حتى يعزل مثل أبيها فيعانى من ذلك أولادها...

الزواج غيَّر شــويكار.. جعلها تعود لأصولهــا المصرية أو تحن إليها بعض الشــىء.. وتتجرد مما ألبســته عليها الهانم مــن تقاليد تركية.. فصارت تتلهف كثيرا لأن تعود إلى بيت أبيها.. فكلما حانت لها فرصة تهرول لبيت أبيها.. تتنسم منه ما فقدته فى بيت زوجها.. فالانكشارى رجــل غليظ.. لا يعرف كيــف يتعامل مع النــاس.. فنظرته التعظيمية لذاتــه صورت له أنه فوق كل هؤلاء الشــراذم.. حتى فوق زوجته التى كان دوما يسبها بمصرية أمها.. مما جعلها ترتد لمصريتها مردا جميلا.. فعلى عكس ســابق عهدها.. كانــت تجلس إلى أمها زينب تاركة الهانم فــى عالمها التركى الخاص.. أســعد هذا خالتى زينــب كثيرا.. جعلها تشعر أن ما سلب منها رد إليها على خير حال.. بل جعل لها قوة على شويكار هانم...

أمــا منصور بك فقــد ضعف.. وبلغ من العمر أرذله.. غير أنه فى آخر عهــده بالدنيا.. أحب مجالس العلم.. ومجالس الصوفية يذكر الله فيها..

وكان يجلس إلى علماء الأزهر مجلس الطالب إلى المعلم بالرغم من سنه.. ذكر لى محمود أنه جاء يجلس فى حلقة علمه.. فأبى محمود إلا أن يجلس إلى جواره.. فأبى الرجل.. نزل محمود وجلس إلى جواره وأكمل الدرس.. كان هذا التحول فى حياة البك منبته موت أبى.. جعل ذلك فيه أثرا عظيما.. أو ربما كان هذا ناقوسا للخطر أدرك منه حقيقة الدنيا...

رجعت رقية وعلى وجهها يبدو الحزن الدفين بعد زيارة أمها.. حاولت أن تخفى ذلك عنى ولكن عشرة الأيام جعلتنى أتفهم الأمر..

– مالك يا رقية؟

– أبدا.. أنا بخير..

– لا تحاولى الكذب.. أعرف هذا الوجه.. ما بك؟

– أبى مريض جدا يا حسن.. أنا أخشى عليه..

– لا يا رقية.. أبوك رجل صالح.. لا تخافى.. أنا ذاهب إليه وسيكون الأمر خيرا إن شاء الله..

أومأت برأسها.. أعرف أنها تعلم أن الأمر قد حان.. فأبوها رجل هرم.. كادت تخرج من باب الغرفة.. لحقت بها وقلت لا تخافى يا رقية.. ضممتها إلىَّ بشدة.. وهى أسكنت رأسها فى مخدع صدرى.. شعرت حينها بدمعاتها التى انهمرت منها.. وضعت يدى على رأسها.. فسكنت ثم انتفضت وقالت: تأخرت على إعداد الطعام.. فى الصباح ذهبت إلى بيت البك.. فتحت خالتى زينب وبدا على وجهها الحزن الشديد.. وقالت: حسن.. كنت سأرسل فى طلبك فالبك يريدك.. دخلت غرفته حيث استلقى على السرير وجلست إلى جواره شويكار

هانم.. غلبها النوم فنامت جالسة إلى جوار مخدعه على كرسيها الفخم وبين يدها عصاها المنقوشة.. دخلت خالتى زينب توقظ الهانم.. فلما أفاقت نظرت نحوى ثم قامت بثقل من مكانها وقالت:

– منصور بك مسكين حسن.. مريض حسن..

– شفاه الله وعفاه يا هانم..

– آمين حسن.. آمين..

ثم رحلت وهى تبكى من الغرفة وتسندها فى مشيتها خالتى زينب.. وقفت أمام السرير.. أنظر إلى هذا الرجل الذى كان ملء السمع والبصر وهو فى حال يرثى لها.. نظر إلى بعين منقبضة بالكاد ترانى وقال:

– اقترب حسن..

– أفندم يا بك..

– اسمع حسن.. أنا سأموت وأنا سعيد مطمئن على رقية..

– أطال الله بقاءك يا بك..

– لم يبقى كثير حسن.. الموت راحة..

فى الحقيقة كنت لا أعرف ما بالرجل من مرض فلم أر قط مثل هذه الحال.. عله الكبر!.. جلبت معى بعض الدواء المسكن للألم.. وبعضًا من الأعشاب.. أعطيته من هذا الدواء عل الله يجعل فيه شفاءً...

فى اليوم التالى.. شاء الله أن يرحمه.. فمات البك منصور وصلينا عليه فى مسجد الظاهر برقوق.. ودفن إلى جوار الإمام الشافعى كما أوصى.. أما عن رقية فقد حاولت أن تظهر قوة الصبر ولكن كانت تركن فى الليل إلى ركن تبكى فيه طويلا.. ولكن الأيام تنسى...

* * *

لا تبقـى الأيام على حال أبدا.. فكمـا رضيت أمى برحيل إبراهيم إلى الإسكندرية.. واجهت رحيل محمود إلى الصعيد حيث كلفه الأزهر الشريف بمهام الدعوة فى الصعيد.. اسـتدعاه الشـيخ العماوى وكلفه بالأمر هذا.. حـاول محمود التملص من الأمر ولكن أصر الشـيخ العماوى على أن توكل المهمة إلى محمود على وجه الخصوص.. وقال: ليس لها غيرك يا محمود يا بنـى الصعيد فقير وفيه كثير من الجهال وتفشـت فيهـم الخرافات.. سيكون معك الشـيخ زغلول صديقك ورفيق دربك.. ليس أمام محمود الآن غير أن يستجيب ويرتحل إلى صعيد مصر ليتولى شئون الأزهر هناك...

جاءنى محمود إلى الحانوت يبلغنى ذلك.. فى الحقيقة هالنى الأمر.. فمعنى ذلك أنه سيرتحل مع ياسمين وأولاده إلى الصعيد.. وبعد الصعيد والمعـارك الدائمة بين الصعيد والمماليك لا يكفون أبدا مما يجعل الوصول إليه صعبا.. كيف سـتتحمل أمى فراق محمود أيضـا.. وأولاده.. وهل ستترك خالتى صفية ياسمين تبعد عنها.. تساؤلات حفظتها فى صدرى ولم أبدهـا لمحمـود.. فقط عندما جن الليل أخـبرت الأمر لرقية وقلت لهـا أن تكتم الأمر حتى يفصح به أخـى.. وكذلك أخبر محمود زوجته بالأمر.. وقال لها علينا أن نغادر الشـهر القادم.. وقد رتب إلينا الأزهر منزلا.. وسـيكون معنا الشـيخ زغلول وأهله.. لم تستطع حينها ياسمين أن تمسك دموعها التى انهمرت.. وقالت له:

– كيف سـأترك أمى وخالتى فتحية.. أمـا يكفيها إبراهيم .. أنت أيضا يا محمود.. وعمك ماذا سيقول فى الأمر.. لقد هرم وأعياه التعب.. أما فكرت فيهم؟

– كيف لا أفكر فيهم.. ولكن ماذا أصنع؟

– قل له يا محمود أننى لن أستطيع أن أغادر القاهرة وأترك أمى.. اسمع سآتى معك فى الغد أخبره.. ألا يعرف؟!!

– وهل تظنين أننى لم أفعل!!.. قلت له كل ذلك ولكن الأمر فى الصعيد يحتاج إلى العلم.. وهذا ما جعلت له فكيف لى أن أترك ما جعلت له.. اسمعى يا ياسمين.. لو كان بيدى أن أترككم هنا وأذهب وحدى لفعلت ولكن الصعيد بعيدا جدا.. كيف لى أن أترككم هنا فى القاهرة..

فى الصباح.. بدا على ياسمين الحزن وكان يغلبها البكاء أحيانا.. حاولت رقية أن تخفف عنها ولكن دون جدوى.. وبطبيعتها التى تميل إلى الشجون شاركتها رقية الدموع.. دخلت عليهما أمى متكئة على عصاها الخشبية البسيطة وظهرها قد أحناه الزمن.. وضعف بصرها.. ولكنها بالرغم من ذلك لديها من الفطنة ما تدرك به الأمور على حقيقتها.. قالت: ما بكما يا بنات؟

– رقية: لا شىء يا أم؟

– ياسمين: لا شىء يا خالة..

– أمى: أنتم تكذبان.. أخبرانى هل من سوء؟

لم تستطع ياسمين أن تخفى الأمر أكثر من هذا.. كبت رأسها على كتف أمى وبكت بكاء شديدا.. وأخبرتها بالأمر.. نظرت أمى وكأنها لم تدرك الأمر بعد أو عل الصدمة ألجمت عنها الكلام.. ودخلت غرفتها فى عزلتها الاعتيادية عند الحزن.. رجع محمود وعلم بالأمر.. فدخل عليها الغرفة.. وقال:

– ليس الأمر بيدى يا أمى.. كلفنى به الأزهر وليس لى غير هذا..

– أما كفاك إبراهيم يا محمود؟

– بـــالله عليك يا أمى لا تصعبى الأمـــر علىَّ أكثر من هذا.. والله إن قلبى لينفطر..

غلب محمود البكاء ووضع رأســه على رجل أمى كما كان يفعل وهو صغير.. وأســقطت أمى بعض الدمع من عينها ثم تداركت الأمر بسرعة غريبة.. وقالت: افعل ما تشــاء يا محمود حفظك الله يا ولدى.. انكب محمود على يدها وقال: والله يا أمى لو تقدرين على الســفر لما جعلتك تظلين هنا أبدا بعيدة عنى.. وضعت يدها على رأســه.. ليهدأ.. فســكن فى حجرها وكأنه طائر عائد لعشه بعد غياب...

مر الشــهر ســريعا.. كانت أمى تنظر إلى محمود خلال هذا الشــهر وتوصيه.. وتطيل النظر إليه وكأنها لن تراه بعدها أبدا كانت تدرك ذلك جيــدا.. وتأتى خالتى صفية تبكى.. فتقول لها أمى.. لا عليك يا صفية لعــل هذا خير لهم.. ثم تحاول التخفيف عنها.. فتذكرها بالذهب الذى تصدقــت به يوم القيامة المزعوم.. فتضحــك خالتى صفية.. وتتذكر هذا الأمر وتقول.. ضيعت كل ما أملك فى الوهم.. ثم تعود فتقول عله خير.. فمــا عند الله لا يضيع أبدا.. كانت لا تذكر ذلك أمام عمى أبدا.. فكلما ذكرت هذا نظر إليها شذرا وقال: امرأة جاهلة.. أما عمى مالك لم يكن لديه أى اعتراض أبدا على ســفر محمود.. بل كان يزجر خالتى صفية كلما بكت لفراق ابنتها فيقول لها: اســكتى يــا صفية ابنتك ذاهبة مع زوجها.. هكذا هى الأصول...

أتت العربة وأتى معها الشـيخ زغلول لتجتمع الأسرتان للارتحال.. وحان وقت الرحيل سـريعا.. وقفت أمى تودع محمود بنظراتها وتوصيه على زوجته وأولاده.. وأوصته أن يكتب إليها كلما سنحت له الفرصة.. قبَّل محمود يدها وقال: إن شاء الله يا أمى...

كان حاضـرا يوم الارتحال حسـونة.. تبدل حاله منـذ وفاة جدتى رحمها الله.. ثم لم يلبس كثيرا من بعد سفر محمود حتى عاد إلى ما كان عليـه.. يزور مخادع اللهو فى الليل ويشـرب الخمر.. فزاد ما كان فيه من شطط...

فى تلك الأثناء قررت شـويكار هانم أن ترجع إلى الاسـتانة.. تاركة مصـر بعد وفاة منصور بك.. بعد وفاته رجع عقل تلك المرأة إلى صوابه.. فصـارت تتصدق بكل ما تملكـه.. وتعامل خالتى زينب بلطف.. كانت رقية سـعيدة بذلك.. ولكن شـويكار هانم ستعود إلى الاستانة.. وستكون خالتى زينب وحيدة فى بيت كبير.. قالت رقية لأمها أن تقنع شويكار هانم ببيع البيت الكبير.. وأن تأخذ كل منهما حقها الشـرعى.. فتجد المال الذى تسـافر به إلى إسـلامبول.. واقترحت عليها أن تأتى لتعيش معنـا فى بيت الزوق.. رحبت أمى بالفكـرة عندما طرحتها رقية عليها فبعد رحيل محمود وأولاده شـعرت بفراغ شديد.. علها تجد مع خالتى زينب تسـلية لوحدتها.. قسمت خالتى زينب ما حصلت عليه من مال بين رقية وشويكار بالعدل.. عرضت رقية على هذا المال بدعوى أن يكون لى.. رفضت الأمر وقلت لها احفظى هذا المال فهو لك مهما طال الزمان.. كنـت أؤمن بأن للمرأة ذمتها الماليـة الخالصة.. ولا يحق أبدا أن يكون

للرجــل الوصاية عليها.. هذا ما نصه الإســلام الحنيف وهذا ما تعلمته يا ولدى فى الأزهر...

كانت جلســات السمر التى تجمع أمى وخالتى زينب وخالتى صفية أحيانــا.. بمثابة الترفيــه الوحيد لهن.. كن يتذكــرن طرائف حياتهن ويجدن فى ذلك تســلية عظيمة.. لم تكن دارنا كما يقول حســونة دارا للمسنين بل كنت أحمد الله أننى هونت على تلك الهرمات أمر دنياهن.. وفى يوم من الأيام قرر حسونة أن يسافر إلى المنصورة.. حيث إنه أحب امرأة من بيت حظ كانت تعمل فيه وقرر أن يســافر إلى المنصورة بلدتها ويتزوجهــا.. فرحت بذلك القرار فى حقيقة الأمر.. بالرغم من أنه أجبر عمى على بيع حانوته ليأخذ المال ويسافر مع تلك المرأة.. لم يكن هناك حزين على ســفره غير أمه خالتى صفية.. وشــد المرض على عمى مالك بعــد فعلة حســونة ببيع الحانــوت.. فثقل كلامه وشــلت حركته فلزم الفراش...

بعد سفر حسونة بثلاثة أشهر.. توفى عمى مالك رحمه الله ودفن إلى جوار جدتى كما أوصى.. اجتمع فى جنازته التجار وأصحاب الحوانيت حيــث كانوا يعدونــه كبيرا لهم.. رحمه الله كان رجــلا عظيما وصانعا ماهــرا.. جعل هذا له عند الناس من الســيرة الطيبــة ما بقى بعد موته بالرغم من أفعال حسونة الشنيعة.. التى يندى لها أى جبين...

بعد وفاة عمى مالك مرضت خالتى صفية بشــدة.. لم أكن أتوقع قط هــذا الارتباط بينهما.. بالرغم من التناوش المســتمر بينهما الذى لم ينته يوما.. لم تتحمل خالتى صفية أن تكون وحيدة من بعده.. أو تعيش بعد

عمـــى مالك غير أيام قلائل.. رحمها الله.. أوصت أن تدفن إلى جواره.. كتبت بذلك إلى محمود وأرســلت مع أحد تجار الصعيد إليه برســالة.. أخبره بتلك الأحداث...

وفــى يوم ورد إلـــىَّ مكتوب من محمود بعد ذلك بأشــهر.. جاء به الشــيخ عبد البر صديق محمود وأحد تلامذته فــى الصعيد.. ذهبت إلى البيت مسرعا أبشر أمى بالرسالة وقرأتها إليها:

أمى الحبيبة.. كم أشــتاق إلى رؤياك.. وردت إلينا رســالة حسن.. إنــا لله وإنا إليه راجعون.. حزنت ياسمين لوفاة أبيها.. ولكن الله يلهم الصبر عند الشدائد.. لقد أنزلنا فى الصعيد خير منزل.. بين أهلها أناس طيبون.. بســطاء.. مازالت فطرتهم نقيــة بالرغم من البدع التى بينهم.. يهدى الله خلقه للخير والسداد.. أوصيك يا حسن بأمك خيرا.. والسلام خير ختام..

كانت تلك رسالة محمود التى وردت من الصعيد.. فرحت أمى بتلك الرسالة فرحا شديدا.. وتهللت أساريرها بعدما كانت حزينة كل الحزن بعد وفاة خالتى صفية رحمها الله...

* * *

(١١)

وردت أخبار من الإسكندرية.. بوفاة الشيخ عبد الغفار القاضى.. فخرجت آلاف الناس لتودعته.. ثم تنادى الناس بتولية إبراهيم ابن عبد الله العطار مقام الشيخ.. ورفع على الأعناق...

لما وردتنا تلك الأخبار كتمتها عن أمى.. فمثل هذا الأمر يقلقها على إبراهيم أخى.. فهو الآن فى صدارة الموقف السياسى ضد المماليك.. أعرف ما ناب الشيخ عبد الغفار حتى أدركه الموت.. لاقى الكثير من العنت.. فسجن فى قلعة قيتباى على بحر الإسكندرية سنوات طوال.. وخرج منها مريضا كهلا لا يقدر على المشى وحده.. وبالرغم من ذلك لم ينسه الناس قط وهو فى سجنه.. بل كانوا يتحسسون أخباره بين الحين والآخر.. ويرسلون إليه بالرسائل ما استطاعوا فى محبسه ويجيب أحيانا إن سنح له الأمر برسائل.. تخفى عن أعين المماليك وأتابكهم وتخرج من السجن.. إلى العامة فتقرأ عليهم فيتعلمون.. إن لكل ظلم نهاية مهما طال الزمان...

حمل الرجل على الأعناق فى جنازة مهيبة حكى لى بعض من تجار الإسكندرية عنها.. خرج أهل الإسكندرية من كل حدب حتى آباء الكنيسة انطلقوا خلف الجنازة يبكون هذا الرجل العظيم .. بعد مماته قرر الناس أن يجعلوا من قبره مقامًا.. ليكون شاهدا على هذا الرجل الذى مات يدافع عن حق العامة والفقراء.. ولكن أمر صنجق الإسكندرية بهدم هذا المقام بدعوى أنه بدعة.. هذا السكير يخاف على الإسلام من البدع!!..

زمــن غريب اختلط فيــه الحابل بالنابل.. ثم تم نقل رفاته بعدها إلى قبر أحد الصالحين بالإسكندرية ليلا حتى لا يعرف أحد مكانه...

* * *

خرجت أمى من غرفتها.. شــاحبة اللــون تتكئ على عصاها.. فلقد ســافرت خالتى زينب إلى أختها فى المنوفيــة.. ورد إليها مكتوب بأن أختها التى تســكن المنوفية مريضة جدا وتريد رؤيتها قبل موتها.. ومنذ ذلك الحين تشــعر أمى بالوحدة ورجعت لشــجونها الأول.. نظرت إلى وجهى فعرفت أننى مهتم لشىء ما.. ثم اقتربت منى لتدقق فى وجهى.. ثم قالت:

– مالك يا حسن؟

– لا شىء يا أمى..

– هل حدث سوء؟

– أبدا.. مات أحد أصحابى فأنا حزين عليه..

– البقاء لله يا بنى.. كل إلى زوال يا بنى..

– نعم يا أمى ونعم بالله..

– ألا توجد أخبار عن خالتك زينب؟

– لا ليس بعد..

– أوحشتنى هذه العجوز.. ليتها تسرع فى الرجوع..

– إن شاء الله يا أم..

جــاءت فيروز تجلــس إلى حجرى.. تعرف لكل واحــدة من بناتى معزة فى القلب لا تشــبه الأخرى.. فيروز هذه الثانية من بناتى كانت

تشـبه أمى كثـيرا بالرغم من أنها أخذت عينى أمهـا الزرقاوين.. كان هـذا يجعل لها عندى حظوة تختلف عن إخوتها.. ففطيمة هى طفلتى الماكرة.. عندما تكسـر شـيئا تأتى لتكون فى حمايتـى من أمها ثم إذا جاءت تسـألها من كسرها تشير بأصبعها الصغيرة إلى إحدى أخوتها.. أحيانا تنجح الوشـاية وأحيانا أخـرى لا تنجح.. أما إبراهيم فلا يزال صغيرا يبكى طوال الليل.. فتأخذه أمه إلى غرفة أخرى حتى لا يوقظنى بكاؤه.. شـويكار هى نسـخة رقيـة الصغيرة.. تقلدها فى كل شـىء وتجلـس إلى جوارها وهى تعد الطعام فتمسـك بيدها الصغيرة السـكين تقطع بها الخضار.. أو تلعب بالعجين وتشـكل منه أشكالاً وتصر على تسويتها فى الفرن...

* * *

اليوم يوم المولد الكبير.. مولد السيدة زينب.. عادة أمى أن تذهب إلى المولد تقرأ الفاتحة عند المقام وتتبرك ببركة آل البيت.. كعادة أهل مصر منذ زمن.. يحتشد الناس فى ذلك اليوم عند المسجد.. ويجلس المتصوفة فى حلقات الذكر ويلهو العامة ببعض الألعاب والخدع.. وتلعب الأطفال وتشترى الحلوى.. وترتدى ملابس جديدة كيوم العيد.. آثرت رقية يومها أن تظل إلى جوار إبراهيم الصغير.. فحرارته مرتفعة.. خفت على البنات مـن الخروج فتركتهن مع أمهن فى البيت.. جهزت أمى نفسـها لذلك اليوم.. وأحضرت النذور والصدقات معها.. وصلنا إلى سـاحة الاحتفال وسـاحة المسجد وقد امتلأت بالناس.. يلعب المهرجون والمدعون السحر بالألعاب النارية والبارود.. فيخيل للعامة أنها من ألاعيب الشـيطان..

يأتـــى البكوات أيضا إلى هذا الحفل يجلســون فى خيم أعدت للعروض السحرية ويشربون النرجيلة.. ويتضاحكون.. يوم لهو قد أضيف إلى أيام لهوهم التى لا تنتهى...

فـــى ذلـــك اليوم كان مـــن بين الحضـــور إسماعيل بك الـــدالى ومعه ابنتـــه الصغيرة وقد ألبســـها كوفية مزينة بالذهـــب.. جلس إلى مجلس البكوات وترك الطفلة مع عبده الحبشـــى.. لعبت الطفلة وجريت بعيدا عن مجلس أبيها وخلفها العبد الأســـود فجـــاءه أحد الحاضرين وعرض عليه قتل الطفلة لأخذ تلك الكوفية الذهبية وبيعها.. فوافق الحبشـــى.. فأخذوا الطفلة بعيدا خلف مسجد السيدة نفيسة وذبحوها وألقوا بها فى قبر قديم.. وســـرقوا الكوفية.. رأيت أباها يومها وقد شـــاط عقله عندما ذهب يبحث عنها ولم يجدها.. وضرب العبد الحبشـــى الذى أوكل بها بالكرباج.. ولكنه لم يبد أى تأثر.. انتهى يوم المولد ورجعت مع أمى إلى البيت.. واشتريت الحلوى لأطفالى.. مرت بعض الأيام فإذ بعبد حبشى غير الذى رأيته لإسماعيل بك .. قدم إلى البيت وقال: إن البك يطلبك.. فقـــد وجدت الفتاة وهى مذبوحة.. فلما ســـألته فـــى الطريق علمت أن أباها أوصى كل تجار الذهب بوصف الكوفية لهم وبعد ثلاثة أيام.. جاء الذى سرق الكوفية يبيعها لأحد التجار فقبض عليه.. وعندما عذبه البك اعترف بذنبه وأخذوه فأشـــار إليهم على القـــبر.. فوجدوا الفتاة ومازال فيها النفس...

ذهبت إلى بيت البك فأســـرع إلـــىَّ وقال: أيها العطار ابنتى تموت.. افعل لها أى شـــىء وســـأعطيك ما تشـــاء بعدها.. وجدت الطفلة هزيلة

ولونها شـاحبًا.. فأوصيـت لها بالطعام.. وأعطيتهـا بعض من الأدوية تنعـش دورتها الدموية من جديد.. وكان الجـرح فى رقبتها ليس غائر ولم يصب الوريد.. فلما أفاقت فرح أبوها.. وأعطانى كيسـا من الذهب على ذلك وانصرفت عنهم...

فى اليوم التالى سمعت القصة من العامة يذكرون أسطورة ركبت على قصـة تلك الفتاة فحكوا أنها عندما أفاقت حكت لأمها أن امرأة ترتدى جلبابا أبيض جاءت إليها وقالت لا تخافى يا صغيرتى سـأخرجك من هنا غدا.. أنا السيدة نفيسة.. ووضعت يدها على الجرح فاندمل وانقطع نزف الدماء.. وكعادة القصص الشـعبية تنتشر سريعا ولا يعترضها شىء أبدا.. خاصة بين الناس صار الهم دأبها.. ولا يجدوا تسـلية فى الحياة غير الحكاوى...

* * *

وقـع الطاعون فى المحروسـة والمعروف بطاعون كـو.. وكان يطلق عليه الفصل العائق يأخذ على الرائق.. وهو الطاعون الرئوى أشـد أنواع الطاعون فتكا.. وانتشـاره يكون عن طريق البراغيث أو رذاذ المريض أو شـىء من فضلاته.. أخـذ هذا الداء من المحروسـة أرواحا كثيرة حتى تدافن الناس بالليل بالمشاعل.. وأصاب الكثير من البكوات.. كان العامة تقول إن هذا بلاء يرجع إلى وبال أمر المماليك.. ينسب إليهم الناس دوما ما يكرهون.. وهذا نتاج كراهتهم لهم...

أمرت أمى أن يغلق باب البيت وألا يخرج منه أحد أبدا.. واسـتمر هذا الحذر حتى أعلن أن الله عفا مصر من هذا الداء.. وأمرتنى أن أشعل

البخــور دوما.. ويخرج الفرش كل يوم إلى الشــمس ليطهر من البراغيث والحشــرات.. كانت تلك هــى طرق الوقاية التى نملكهــا من هذا الداء اللعــين.. توقفت عن التطبيب تلك الأيام.. بأمر من شــجرة الدر.. ومن رقيــة أيضا.. برغم شــعورى بالذنب والتقصير فإننى آثرت الســلامة.. فمكثت فى البيت أربعة أشهر كاملة حتى انقضى الأمر...

جاءنا مكتوب بعدها بشهر من المنوفية.. كتب فيه..

إلى بيت الحاج عبد الله العطار.. السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. أمــا بعــد فالبقاء لله وحــده.. ننعى إليكــم خالتى زينب فقــد أصابها ما أصاب الناس من داء الطاعون فماتت به.. بعدما ماتت أمى الســيدة طاهرة (أخت خالتى زينب).. ودفنت مع أمى فى مدافنا فى المنوفية.. رحمها الله وجعل الجنة مثوى لها..

عندما وصلنى هذا المكتوب تسلمته رقية.. ولكنها لا تقرأ.. حاولت أن أخفــى عليها الأمر ولكنها فهمت ذلك من قبل أن أتفوه به.. فقد كانت تعرف أن المكتوب جاء من المنوفية.. نظرت إلى وعيناها دمعة وقالت:

– أمى؟.. أجبنى يا حسن.. أمى؟

– اهدئى يا رقية..

– لا شاهدت الرؤيا.. إنها أمى.. جاء أبى يأخذها..

– إن الأعمار بيد الله يا رقية..

– وماذا عن خالتى؟

– رحمها الله..

سقطت من فورها على الأرض.. حملتها إلى السرير.. وأخذت أمرضها ظلت فى السرير أسبوعا كاملا.. لا تستيقظ حتى تبكى بشدة.. ولا تهدأ إلا إذا احتضنتها كالطفلة التى فقدت أمها.. أما عن أمى فحزنت ولكن سرعان ما عزمت أمرها.. وأدركت أن الحياة قصيرة مهما طالت.. جاءت شويكار أخت رقية للمرة الثانية بعد فرح رقية إلى بيت الزوق.. جاءت تبكى ولكنها كانت متماسكة إلى حد بعيد عن رقية.. فقد كانت خالتى زينب بالنسبة لرقية كل شىء.. ملجأها وحمايتها فى الدنيا.. هكذا كبرت رقية.. جلست شويكار إلى جوار أختها الصغيرة.. تبكى وفى يدها طفلها الصغير عمر.. أسمته اسما عربيا.. كانت لتلك الزيارة أثر فى رقية.. فقامت من فراشها وبدأت فى التعافى.. ولكنها كانت كثيرا ما تتذكر أمها فتبكى.. ثم تدرك ما آلت إليه الأمور فتهدأ قليلا.. فى يوم قالت لها أمى:

– تعرفين يا رقية ماتت أمى وأنا طفلة صغيرة وربتنى خالتى حتى تزوجت.. فكانت خالتى تلك بمثابة أم لى.. لم أعرف غيرها أما.. وعندما ماتت شعرت بفقد الأم.. لكنى أدركت أن الله يجعل الناس أسبابًا لبعضهم البعض.. فلولا خالتى تلك لمت فى صغرى.. ولكن سخرها الله لى لتكون لى أما.. فلما ماتت علمت أن الله حى لا يموت.. وهو يرزقنى وأحن من أمى وخالتى علىَّ...

جعلت تلك الكلمات رقية تسلك مسلكا جديدا فى الحياة.. تطيل فى صلاتها وتكثر من الصدقات.. وتسبح كثيرا.. كان فى ذلك أمل جديد فى الحياة لها...

كبرت شويكار.. الفتيات فى سنها يتعلمن القراءة والعلم.. قالت أمى البنت فى نهاية الأمر مصيرها إلى الزواج.. ولكنى أبيت إلا أن أعلمها.. اتفقت مع الشـيخ جاد الحق صديق محمود أن يعلم شـويكار وفيروز.. القراءة والقـرآن.. وعهدت له بمبلغ من المال مقابل ذلك.. فكانت رقية تجلس خلف الباب تسـمع الدرس معهن وتتعلـم كيف تقرأ حتى تقرأ القرآن.. كانت تفرح كلما تعلمت شيئا جديدا.. وتحكيه لأمى آخر الليل قبل أن تنام.. كم أوحشتنى رقية.. أوحشتنى!!

* * *

(١٢)

استيقظت فى ذلك اليوم على صراخ إبراهيم قد تعالى الصراخ حتى أيقظ من فى البيت.. دخلت الغرفة الأخرى حيث ينام.. وجدت رقية تحمله تحاول أن تسكته بأية حال ولكن بلا جدوى.. أعرف أنه ضعيف منذ مولده ولكنى لم أعرف السبب فى صراخه الدائم هذا.. لا يهدأ أبدا إلا إذا حملته جدته فينام على حجرها طوال النهار.. ولكن فى ذلك اليوم حملته أمى كما تفعل ولكن دون جدوى.. حرارته ترتفع.. أسقيه الدواء وأغلى له الأعشاب.. فيهدأ قليلا ثم يعاود الصراخ من جديد.. يحيرنى أمره.. شىء ما يخبرنى أنه لن يعيش عمرا مديدا.. فضعفه هذا لا يعينه على البقاء.. كثيرا ما أعددت نفسى لهذا اليوم.. وأتذكر مصيبة رسول الله فى فقد ابنه إبراهيم حيث بكاه.. وأذكر نفسى بالصبر وبأنه سيصير من أطفال الجنة ويأخذ بيدى ويد أمه لها.. ثم أراجع نفسى ثانية فأستغفر وأتذكر أن الأعمار بيد الله وحده فتهدأ نفسى قليلا...

أعطيته بعضًا من الأدوية المسكنة للألم.. فهدأ ونام.. لكن أمه لم تنم.. جافى عينيها النوم خوفا عليه.. ظل على هذه الحال فى الصراخ غير المنقطع أربعة أيام كاملة.. حتى إننى تمنيت لو أنه ارتاح من هذا الألم غير المنقطع.. سبع سنوات وهو يعانى من ضيق التنفس.. وآلام كان يحاول أن يعبر عنها كلما سألته فيشير إلى صدره.. وفى اليوم الرابع شاء الله أن يرحم هذا الطفل ويجعله فى اللؤلؤ المكنون...

بعد العشـــاء بدأت فى محاولة للنوم.. ومـــا إن أغمضت عينى حتى وجـــدت باب الغرفة يفتح وتدخـــل منه رقية.. تبكى بصوت منخفض.. تشـــهق بصوتها وكأنها تبكى منذ ســـاعات.. ســـدل هذا الستار الفضى الشفاف على عينها الحزينة.. كما كان يفعل كلما بكت.. قالت بصوت كدت أسمعه:

– مات إبراهيم..

كنـــت أعـــرف هذا فكان وقـــع الصدمة على قد مهد لـــه منذ زمن.. أو ربما لم أكن أدرك الأمر فى حينه.. ولكنى قمت من فراشى.. ووضعت كتفيها بين يدى.. وأجلســـتها على كرسى خشبى قد وضع فى الغرفة.. وجثوت أمامها على الأرض.. أحدثها بصوت العقل.. أجهر بما أعددته لنفسى من قبل من عزاء.. هى أيضا كانت تشعر أن تلك اللحظة ستحين يومـــا.. لا أعرف من أية فطرة جاءت بتلـــك الأفكار.. لم تكن تجيب.. فقط تهزهز رأسها موافقة على ما أقول.. ثم حكت لى بهذا الصوت الناعم الهادئ فقالت:

– مات مثلما تموت القطط الصغيرة.. فقط أخرج نفسه هكذا..

ونفخـــت فى وجهى بهدوء.. لا أعـــرف من أين جاءت حينها بتلك الرصانـــة والهدوء.. ربما أدركت حقيقة الموت بعد كل ما رأته فى بيت الزوق من حزن وموت وفرح وضحك حتى الدموع...

الدموع لطالما تســـاءلت من أين تأتى تلك القطرات.. لا أعرف دموعا لخلق آخر غير الإنسان.. للدمع هذا سر خفى.. كانت أمى تقول يجعل الله شـــعور الإنسان دمعا فيخرج من الجســـم فلو بقى فيه لقتله.. كانت

حكيمة رحمها الله بالرغم من جهلها لكثير من الحقائق.. ولكنها كانت بسيطة تفرح وتحزن بلا حساب.. كنا نعيش على الفطرة فيهدينا الله السبيل.. نتوكل عليه فيرزقنا كما يرزق الطير.. نصبر على البلاء فيرحمنا برحمات ولطائف...

فى الصباح علمت أمى بالأمر.. وأخفيناه عن أخواته هكذا أرادت رقية.. ثم نادتنى أمى محاولة تهدئتى.. فتقول ما تعرفه عن الصبر قولتها المعتادة.. أسمعها منها منذ الصغر ولكنى لا آمل أبدا من سماعها.. ثم سكتت قليلا.. وسكبت الدمع عندما تذكرت أخى إبراهيم الذى طال غيابه عنها كثيرا...

كبرت أمى فلم تعد تميز الأشياء بسهولة.. وتخلط الأسماء ببعضها البعض.. أحيانا نضحك على ما تقوله.. ثم تدرك أنها أخطأت.. فتحزن كثيرا وتسكت عن الكلام.. ثم تنسى الأمر وتعاود من جديد.. داء النسيان يصيب الناس عندما يكبرون.. سمعت أبى يقول إن هذا الداء يأتى نتاجًا لتتابع الأحزان على الإنسان.. فيرزقه الله النسيان ليخفف عنه.. فلم يسم الإنسان إنسانا إلا لأنه ينسى....

أذكر مثلا من نوادر أمى أنها كانت تنادى رقية باسم أمها زينب.. وتنادى شويكار الصغيرة باسم رقية.. فتضحك الصغيرة وتقول:

– اسمى شويكار يا جدة..

– أعلم يا بنيتى أن اسمك رقية..

فى يوم استيقظت من نومها تنادى أبى.. وخرجت تبحث عنه فى البيت كله.. فلما لم تجده خبطت على رأسها وقالت:

– لقد مات يا فتحية منذ زمن.. حتى هذا نسيته:

ضحكـت رقية عندما سمعتهـا تقول ذلك ولكنهـا كتمت ضحكتها فنظرت إليها أمى وقالت:

– علام تضحكين يا زينب؟!

– لا شىء يا أم..

– ألم تأت خالتك صفية بعد؟

– خالتى صفية ماتت من زمن..

– ماذا؟

– لا شىء سأرسل فى طلبها..

رأيت هذا المشـهد.. فلم أسـتطع أن أمسـك دموعى حينها.. بينما كانـت تضحك رقية من هذا.. فلما رأتنى أبكى.. جاءت تعتذر عن هذا بأدب وجهها البرىء.. قلت لها:

– كبرت أمى يا رقية.. كبرت..

– تلك هى سنة الحياة يا حسن.. ماذا نفعل؟

– ليتنى أعرف أن آتيها بإبراهيم ومحمود..

فى ذلك الحين تذكرت وصية أبى.. أن أرعى أمى ولا أدعها أبدا.. كنت أتسـاءل كثيرا عن سر الإنسـان عندما يدركه الموت أو يشعر بدنو الأجل.. ربما تكشـف له الحجب.. أم أن هذا خاصة لأوليائه.. أو ربما هذا خص به من يموت فى الحج.. ذهبت مع أبى مرارا فى رحلة الحج.. عندما كنت صغيرا.. لم أدرك ذلك قط.. ثم أعاود فأقول أيا ما كان هذا الشىء المخفى عنا فعلينا أن نستسلم لواقع الحياة والموت...

* * *

مـات إبراهيم الصغير يوم وصل أحمد باشـا المعـروف بكور وزير.. وصعد إلى الإسـكندرية.. كانت بشـائر قدومه سـابقة لـه.. فعرف عن هـذا الرجل علمـه وحبه للعلم وأهله.. طلب لقاء وفـد من علماء الأزهر عندمـا اسـتقر بالقلعة.. حكى لى أحد تلامـذة إبراهيم أخى أنه لما كان فى الإسكندرية قابله إبراهيم وجلس منه بمقام التلميذ إلى أستاذه.. كان الباشـا هـذا محبا للفكر والمنطق ومقدرا له.. فلمـا عرف بإبراهيم وقصة أسـتاذه رحمه الله دعاه.. حضر إبراهيم وجلس الباشـا إلى جواره وقال علمنى أيها الأسـتاذ.. فكان يجالس إبراهيم مرتين فى الأسـبوع يتعلم منه.. كان إبراهيم محبا لعلم الحسـاب.. علمـه عمى ذلك العلم عندما كان يعمل معه فى ورشـة النجارة.. ولكنه درس عن العلماء القدامى من أهل الإسـكندرية.. وظل يجالسـه إلى أن حضر إلى القاهرة.. فطلب من إبراهيم أن يعود إلى القاهرة.. قال وإلى من أترك تلاميذ أسـتاذى.. ولكن أوصيك قبل أن ترحل فقال:

لا يخدعك المماليك أبدا فاحذر ثم احذر.. فغدرهم لا حد له.. يستغلون العامة لمصالحهم.. يتكالبون على السـلطان ويطلبونه ولو بالدم.. وعليك بعلماء الأزهر فاجعلهم إلى جوارك.. واسأل عن الشيخ حسن الجبرتى فهو أهل للعلم والحساب.. فتعلم منه ولا تنسنى من صالح دعائك...

لذلك لما حضر إلى القلعة سـأل عن الشـيخ حسـن الجبرتى.. (والد الجبرتـى صاحب التاريخ وأورد ذلك الجبرتى فى كتابه).. فلما سـأل عن علم الرياضيات شـيوخ الأزهر فقالوا لا علم لنا بهذا.. فقال وكيف تعرفون المواقيت والشـهور.. فقالوا هـذا العلم فرض كفاية.. فلما عرف

عمَّــن يعلمه هذا.. قالوا من ذكرت (الشــيخ حســن الجبرتى) .. فكان يجلس إليه فيعلمه...

كان الشيخ حسن الجبرتى عظيم القدر عابدا زاهدًا لا ينظر إلى ترف الدنيا.. وكان يصعب أن يحضر مجلســا للباشــا فكتب إليه وأرسل فى طلبه.. فحضر إليه وســر بمعرفته.. وكان يجلس إليه كما فعل من قبل فى الإسكندرية مع إبراهيم أخى.. أو كما كان يقول الأستاذ المعلم يقصد إبراهيم أخى...

فى عهد هذا الرجل كان العدل ميزانه.. فعمل بنصيحة إبراهيم ولجم جماح المماليك فعدلوا بين الناس وزاد الخير فى عهده.. ولكن ســرعان ما ينتهى كل شــىء جميل فى الدنيا.. فلم يطل المكوث فاســتدعى إلى الديار الرومية (الأستانة).. فرجع وهو يحفظ فضل العلم الذى درس فى مصر.. فارتفع شأنه فى إسلامبول وكان من الوزراء المقربين...

لما حضر الباشا إلى القاهرة أرسل معه إبراهيم برسالة إلينا ورجاه أن يوصلها.. فأحضرها إلى البيت أغا من عند الباشــا.. وقال إلى شــويكار الصغيرة.. إنها رســالة من عند الأستاذ المعلم.. فلم يفهم أحد من البيت ما يقوله فظنوا أنه أخطأ البيت.. ولكنه أكد لهم أن هذا إلى بيت الزوق.. فلما وصلت قرأت الرسالة وعلمت أنها من إبراهيم.. كتب فيها:

أمــى الحبيبــة تحية طيبة.. فلقد منَّ الله علــىَّ بعلم أعلمه للناس.. فانشــغلت به عنكــم.. ولكن يا أم أنت حاضــرة دوما معى فى صحوى ونومى.. ضيق علىَّ المماليك كثيرا بعد وفاة أســتاذى رحمه الله.. ولكن الله أخذاهم.. ورفع الباشــا عنى ذلك.. وأنا الآن بخير والحمد لله ولكن

العمر والتعب أخذا منى.. هكذا هى الدنيا.. ماتت زوجتى بعدما ولدت ابنى الثالث عبد الرحمن فمنَّ الله على يا أم بولدين وبنت أسميتها فتحية.. كان فى ذلك تسلية لى فى البعد عنك.. وصلنى خبركم مع أحد تلاميذى رحم الله عمى مالك وخالتى صفية.. ورحم الله أموات المسلمين والصالحين.. لا تنسينى يا أم من دعائك.. وإن شاء الله يكون اللقاء قريبا.. والسلام..

بكت أمى بشدة عندما قرأت لها هذا الخطاب.. ولكنها سرعان ما نسيت الأمر.. أو لعلها تناسته فلا يعاودها الحزن من جديد على فراق إبراهيم.. ولكنها قالت كيف لى أن أتحمل أن يكون بعيدا عنى وقد قرب الأجل.. وأوصتنى أن أكتب له.. وألحت فى الطلب كثيرا.. عولت قليلا على نسيانها الأمر ولكنها لم تنسه.. فأحضرت الورق والمحبرة وأملتنى ما تريده.. فكتبت:

ابنى العزيز إبراهيم.. أما يكفيك يا ولدى هذا الفراق.. ما مر من العمر كثير يا ولدى ولم يتبق غير اليسير.. ارحم ضعفى وامنحنى فرصة رؤيتك قبل أن يبلغنى الأجل فلم أر أولادك حتى الآن.. أما إن أصررت على الفراق فالله يرحمنى.. والسلام..

كان وقع الكلام قاسيا أشفقت على إبراهيم أن يقرأه فيزيد عذابه.. واعلم أنه إن حضر إلى القاهرة فلن تتركه المماليك أبدا.. حتى إن حماه الباشا نفسه.. فلن تنسى المماليك ما لاقوه منه ومن أستاذه من عنت شديد وتقليب العامة عليهم.. بالرغم من أن المماليك تتوالى المناصب ولا يثبت أحدهم على منصب إلا القليل فيأتى من هو أكثر منه كيدا

فيعزلــه.. إلا أنهم يحفظون لبعضهم.. ويعلمــون بعضهم البعض من هو معهم ومن يكرهون...

حفظت الرســالة عندى ولم أرسلها.. ونســيت أمى أمر الرسالة بعد ذلك.. وهذا ما كنت أرجوه.. غير هذا كيف سأرسلها فلا أعرف لإبراهيم مكانا أرسله إليه ولا عنوانًا...

فى هذا العام أرسل محمود رسالة من الصعيد.. كان بعد التى أرسلتها إليه مع أحد التجار أخبره عن الأخبار قال فيها:

أمى الغالية.. بالله عليك لا تغضبى منى لبعدى أبدا.. ولا تنســينى من دعائك فلا أكون إلا ببركته فى خير أبدا.. أخى العزيز حسن البقاء لله وحده لما أصابك وأصاب رقية فإنا لله وإنا إليه راجعون.. لقد اعتزمت أمرى فى أن أرســل عبد الله للدراســة بالأزهر الشريف ليتعلم العلم من أهلــه ويجلــس إلى أعمدته فيصلح أمر دينه ودنيــاه.. وعزمت أمرى أن أخطب إليه ابنتك شــويكار.. فيكون ابنا لك.. أوصيته بها خيرا.. فلو خالف أدبه.. أما عنا فالحمد لله فى خير ونعمة.. والسلام خير ختام..

بعدها أرسلت إليه رسالة أخرى:

أخــى العزيز محمود.. لو كان عندى من الولد.. ما تمنيت أن يكون علــى غير عبد الله ولدك.. ومــن أولى بها منه بارك الله لهما وعليهما.. أما عن وصيتك فكما قلت هو ولدى.. جعله الله خير طالب للعلم فيصير كأبيه عالما نفخر به إلى آخر الزمان.. والسلام

هكذا انتقل عبد الله ليكون مرة أخرى فى بيت الزوق.. ويصير زوجا لابنتى شــويكار.. فرحت رقية بذلك.. ولكنها بكت فلما سألتها قالت:

كيف أفارقها يا حسن.. ضحكت من ذلك كثيرا.. آه من النساء لهن أحوال عجاب...

وصل عبد الله إلى بيت الزوق فكان يوم عيد لأمى.. أجلسته إلى جوارها طوال النهار.. وكلما رأته قبلته وقالت يا بن الحبايب.. ولكن فى الصباح.. استيقظت من النوم فقابلته فى ساحة البيت جالسا.. ظلت تنظر إليه وتتساءل.. من هذا الذى يجلس هناك.. ثم اقتربت منه كثيرا ونظرت فى وجهه وقالت: من أنت يا ولدى؟.. تعجب عبد الله كثيرا من السؤال.. تلعثم لسانه ولم يجب.. فقالت رقية:

– هذا عبد الله يا أمى ابن محمود..

– وما الذى أتى به إلى هنا..؟

– هل هربت من أبيك يا ولد؟

– يا خالة جاء يدرس فى الأزهر ويخطب شويكار..

– كيف يتزوج هذا الصبى أختك يا زينب؟ ها أخبرينى

– يا أمى شويكار ابنة حسن.. يا حسن.. يا حسن أدرك أمك..

كنت مارا حينها إلى الباب خارجا إلى الحانوت.. فقلت لها: اهدئى يا أمى تعالى ارتاحى قليلا ستكونين بخير إن شاء الله.. أدخلتها غرفتها لتنام قليلا فترتاح.. هكذا نفعل عندما تكون على هذه الحال...

أصرت رقية على أن تكون لابنتها غرفة كبيرة بأثاث جديد.. على الطراز التركى.. أوصيت النجارين بذلك.. وأعددتُ غرفة محمود بكل ما يحتاجه العروس.. وكان الفرح عظيما.. جاء التجار من كل حدب وصوب.. وجاءت نساء الحى يباركن لرقية.. يومها خالجنى شعور من

نوع متفرد لم أعهده من قبل.. شعرت بما سبقتنى به رقية.. وكأن شيئا منــى قد نزع.. أعرف أنها فى الغرفة المجــاورة مع زوجها الخجول.. ولكن هكذا كنت أشــعر بالأمر.. عبد الله ولد طيب مثل أبيه.. تعلم فى الصعيد على يد أبيه ومشايخ الصعيد.. ولكن أراد أبوه له أن يتم ما بدأه فــى الأزهر فينال من علمه وينهــل منه.. أمهر محمود ابنتى مائة دينار مــن ذهب.. كان هذا فى عهدنا مالا كثــيرا.. ربطه عبد الله على بطنه طيلة الســفر حتى يخفيه عن اللصوص.. وكان يخشــى ويتمم عليه كلما سنح له الأمر.. هكذا كان يحكى...

حاولــت أن أخفف الأمر عنى وعن رقيــة.. فقلت لها أتذكرين يوم فرحنا.. فضحكت وجففت دمعها وقالت:

– لا أنساه ما حييت.. تذكر الهانم عندما جاءت..

– آه.. شوكوزال.. شوكوزال رقية..

– ايفيت أفندم.. ترى أين تكون تلك المرأة العجوز؟

– فى إسلامبول..

– لا أقصد.. ألا تزال حية أم ماتت..

– رحمها الله إن كانت ميتة أو حية..

كان فى هذا الحوار تذكر لبحر من الذكريات.. أنستنا تلك السخافات التى جابت رأسى.. مبارك لك يا بنيتى...

* * *

(١٣)

عــادة تتلاحق الأفراح كما تتلاحق الأحزان.. يعتادها الإنســان على هذا النحو فى دنياه.. عندما تشــعر بالهرم والوحدة معا.. تدرك الحياة بشــكل آخر.. ففــى حياتى عرفت الناس بطبائعهــم المختلفة وأفكارهم الغريبــة.. وعرفت منهــم العاقل والجاهل.. المحب والحقود العاشــق والجاحد.. المتطرف فى رأيه وفكره.. والمدرك لحقائق الأمور...

كذلك الظلم يصنع من الإنســان شــيئا آخر.. يمكنه أن يصنع وحشا أو يصنع أســطورة.. يصنع حبًّــا أو يصنع مرضًا يكمــن بين ضلوعه.. وينطلــق منه دوافعه فى الحياة.. فمــا أعظم أن تكون حاضرا فى صدور النــاس.. ويذكرونــك إلى يــوم يبعثون.. على أن ترضــى بالخنوع فتذل وترضى.. تهان وتقنع.. تركن إلى الأرض...

هــل فكرت يومــا لماذا خلقنا من تراب؟.. أنــا فعلت خلقنا من أذل الأشياء.. وجعل الله منها أعظم الأشياء.. أعطينا العقل والحكمة والإرادة الحــرة.. فإما أن تدرك الحقيقة بعظمــة خلقك.. وإما أن ترضى بكونك ترابا لا تعلو على ذلك قدر أنملة.. من أذل نفسه فهو تراب.. من رضى الظلم فهو تراب.. خلق من عدم ويعود إلى العدم.. فقط حفنة من التراب تنثرها ريح خفيفة فتتناثر ذراتها فيعود لا شــيئًا.. عندما أدركت العدم علمــت كيف أكون موجودا.. هكذا علمنى أخى الصغير إبراهيم صاحب البلاء العظيم...

* * *

حتمـا هذا شـيء لا يصدق.. فيروز الصغيرة تتـزوج.. كيف هذا؟.. كلمـات قلتها وأنا أنظر إليها.. فاحتالـت وجنتاها إلى اللون الوردى.. وأغلقت أجفانها عن لون السـماء.. ثم انصرفت مسـرعة إلى غرفتها وقد جعلت وجهها للأرض خجلا.. نظرت إلى رقية مبتسما.. قالت:

– أحرجتها يا حسن..

– كم أحب لون وجهها عندما يتورد (قلتها مبتسما)..

بـدت الدمـوع فى عين رقية وهى تنظر إلى عينـى.. وتأخذنى لدنيا عينها.. لاحت برأسـها بعيدا عنى.. وكأنهـا تخفيها عنى.. كان هذا يجعـل منى رجـلا حزينا.. حقيقة علـى أن أدركها لكنى فى سـكرة اللحظات.. أدركتها عندما قالت رقية باكية:

– ستفارقنى..

لم أتوقع أن يأتى هذا اليوم.. على العكس من أختها.. كيف أتحمل هـذا الفراق؟!.. ياه كـم عانت أمى من فـراق إبراهيم ومحمود.. كيف أسـتيقظ صباحا فلا أجد تلك الابتسـامة وذلك الوجه أمامى يقول: أعد الفطور يا أبتِ.. ولكن ماذا أفعل.. فابن عمومتى الذى حضر من الشـام جـاء يخطبها لابنه الأكبر علـى.. أعرفه منذ كنت صغيرا ففى رحلات التجارة أمر عليه فى اللاذقية.. فلقد جمعنا الجد الأكبر.. وظللنا نحفظ هذا إلى يوم رحل جده عن مصر يوم خاف على نفسه وولده الفقر والقحط الذى أصاب البلاد يوما.. وها هو الآن يعود.. جاء لخطبة فيروز.. على رجل دين خلوق مثل أبيه يعرف كيف يحميها ويحفظها ويحسن إليها فـى معاملته.. ولكن الفراق صعب.. لم أعد أسـتطيع أن أقوم برحلات التجارة تلك منذ سـنوات.. وكنـت أكتفى أن أوكل أحدا بالتجارة على

أن نتقاسم الربح.. أرفض هذا؟!.. كيف أطفئ تلك الفرحة التى ملأت وجهها عندما عرفت بالخبر.. شىء ما يلح علىَّ أن أرفض.. لم أكن أشعر بهذا عند زواج أختها...

أدركت هذا الشعور أمى.. فنظرت إلىَّ عندما أخبرتها بالأمر فقالت كف عن تلك الأنانية التى تطغى على الآباء.. ابنتك سعيدة لهذا الأمر.. وهل تجد خيرا من دمك يرعاها ويحفظها؟.. كانت تلك عتابات أمى.. أو لعلها أدركت ما بداخلى من صراع أبوى.. أحمد الله كثيرا أن داء النسيان الذى أصابها أصاب إدراك عقلها.. ولكنه لم يصب قلبها.. فهى لاتزال تذكر أنها أم.. فقط تنسى الفراق والأسماء.. وأحيانا تنسى الأماكن والاتجاهات فتصلى فى اتجاه آخر.. فنتركها تصلى أنى شاءت.. هكذا قال عبد الله دعها يا عم فأينما تولوا فثم وجه الله.. لا تذكرها دوما بعلتها فتحزن.. لا أعرف عن الفقه قدر ما يعرفه عبد الله.. قدر ما أعرف عن الإنسان...

قرب أن ينتهى غرضه من الأزهر.. تمر الأعوام سريعا.. أخبرنى أنه ينوى أن يرجع إلى الصعيد.. فقد كبر أبوه وأرسل فى طلبه.. يخشى محمود أن يفارق الحياة وحيدا.. عندما كنا صغارًا كان دوما يجعلنا ننام فى غرفة واحدة بالرغم من أن البيت كبير.. يمكن أن تكون لكل منا غرفة مستقلة.. لكن محمود لا يحب الوحدة أبدا.. ولكن ليس هذا السبب.. لا أعرف السبب الحقيقى.. ربما يخشى أن يموت قبل أن يوصى لأولاده.. جاء الخطاب بخبر مرضه.. فقط ينتظر حتى ينتهى فرح فيروز فيغادر مع زوجته.. فالفراق الآن قد ازدوج..

يدق الباب بيد رقيقة.. أعرف من بالباب.. إنها فيروز..

– ادخلى يا بنيتى..

عيناها مملوءتـــان بالدموع.. جريت ترمى برأســـها على فخذى كما تفعـــل دوما.. وضعت يدى على رأســـها.. فهدأ بكاؤهـــا قليلا.. رفعت رأسها ونظرت إلـىَّ وقالت:

– لا أريد أن أتزوج يا أبى..

– لمَ يا حبيبتى.. ألا تريدين أن تكونى أما؟

– لَا أقدر على البعد عنكم..

حاولت أن أربط جأشـــى وأخفف هـــذا عنها.. آه لو تعلمين يا بنتى كم أتألم لهذا الفراق.. قلت لها متصنعا الصبر..

– هكذا هى الحياة يا صغيرتى.. وعلى رجل طيب ودين وخلوق..

– أعرف هذا..

– أيتها الخبيثة.. ألم تكونى تضحكين منذ قليل؟!.. كدت ترقصين من الفرحة.. آتية الآن لخداعى.. مبارك لك يا حبيبتى..

عاود الابتسام فمها الصغير من جديد.. واحمرت وجنتاها من جديد.. ثـــم نزلت على يدى تقبلها.. ونزلت على رأســـها أقبلها.. دخلت رقية ونظرت إلـىَّ بابتسام.. وقالت:

– الله الله..

– رأيت يا فيروز ستغار أمك منك..

– ممن أغار يا حسن.. هل نسيت من أنا ها..

– مـــن؟! تلك الجميلة صارت امرأة كبـــيرة.. وجميلة .. أجمل من أمها.. تشبهنى..

– هكذا إذا..

– نعم..

– قومى يا فيروز ساعدى أختك فى إعداد الطعام.. وأتركى لى هذا الرجل..

قامت فيروز إلى الباب.. فاحتضنتها رقية وقبلت رأسها وقالت: مبارك لك يا بنيتى.. ثم ضربت بيدها على كتفها.. ونظرت إلى وجهها طويلا.. ثم قالت: هيا لا تتأخرى.. أغلقت رقية الباب.. ونظرت إلىَّ وبدأت البكاء من جديد.. ثم قالت غاضبة:

– قالت لى شويكار عن أمر رحيلها أيضا.. لمَ لم تخبرنى؟

– كنت أنتظر أن تهدئى قليلا

– ماذا أهدأ؟!.. كيف أهدأ.. وابنتاى تفارقاننى؟

– وهل تظنين أن الأمر علىَّ هين؟

– أنت رجل.. لا تشعر بألمى أبدا..

– وهل نزعت القلوب من الرجال.. اهدئى يا رقية لم يعد هذا يغير شيئًا.. لقد آن الحين لحياة الجديدة.. لطالما تمنينا ذلك..

انصرفت من الغرفة حينها ولكنى أدركت أنها ستظل على بكائها هذا طويلا.. لا يندمل هذا الأمر سريعا وأظنه لن يندمل.. مثيلات رقية من النساء لا يعرفن كتم الحزن أبدا...

لم يطل الأمر كثيرا.. فها هى فيروز تسافر إلى الشام مع زوجها على.. وتلحق بها شويكار مع زوجها إلى الصعيد.. وما إن وصل عبد الله إلى الصعيد ولم يطل الأمر غير شهور.. حتى أرسل فى خبر أخى محمود

رحمــه اللّه.. كتمت الأمر عــن أمى.. وصرت أجلس فــى الغرفة أبكى وحيــدا.. فمثل محمود من الرجال لا يعوض.. فهو الأخ والصديق ورفيق الصبــا.. كان موتــه هذا متوقعا فكان يعانى رحمــه اللّه من داء الكبد.. ومــات من هذا.. رحمه اللّه وفــى وكفى.. أما إبراهيم طريد المماليك هذا فلا نعرف عنه شيئا...

أذكر يومها أننى جلســت علــى الأرض أبكى كطفل صغير ضاع من أمــه.. نظرت لى رقية وبــدا عليها الاندهاش.. ثم جلســت إلى جوارى وضممت رأســى إليها.. وصارت تمســح على رأســى.. وتمسح دمعاتى المتناثرة.. وأنا مســتمر فى بكائى بشدة.. ثم رفعت رأسى ووضعتها بين يدها.. فكأنها فصلت عن جسدى وصارت إليها فقط.. قالت:

لا تبك يا حبيبى.. تعرف أن محمود كان يتألم.. ربما اختار اللّه حدا لهذا العذاب.. ألم تخبرنى من قبل أن فراق الحياة يتلاحق.. لا تسرف فى هذا فتعرف أمك الأمر.. ما عادت تقدر على الحزن..

– أعرف هذا.. ولكن كيف أمنع دمعى.. هذا أخى.. ليس بوســعى أن أتحمل يا رقية.. لا أستطيع.. لا..

أرجعتنــى ثانية إلى حضنها.. وشــعرت بدفء دمعها الصامت ينزل من عينيها على رأســى.. وظللت على هذه الحال ســاعة حتى أرهقنى البكاء وغلبنى النوم.. فأنزلت رأسى على وسادة.. وأغلقت الغرفة حتى أرتاح قليلا...

* * *

ســيحيا هذا اليوم فى عقلى إلى الأبد.. يوم طلبت منى أن نذهب إلى النهر كما كنا فى أول أمرنا نتســكع على ضفافه نرى الأشجار والطبيعة

من حولنا فننسى الهموم والأحزان كلها.. ننظر إلى العالم من حولنا كأنه غريــب عنا ونتفقد شــكل الماء الجارى كأنه يجــرى لنا.. والطيور تغرد من حولنا أى ســحر هذا للمشــى بين تلك الطبيعة الغناء.. يومها كانت مياه النهر فى نقصان.. ربما يكون هذا بداية لجفاف جديد.. يحفظ الله مصر.. كثيرا ما بليت...

أمســكت بيدى.. بل تعلقت بها.. كأنها تخشــى أن أهرب منها.. وصلنا إلى شــاطئ النيل.. فى النهر تقــف راهبتان وقد وصلت المياه إلى الركبة منهما.. ومن حولهما الطيور تشرب من الماء غير عابئة بوجود من حولها.. نظرت إلىَّ ونطقت بعد صمت طويل...

– تذكر يا حسن عندما قلت لك أن تعدنى ألا تتزوج بعدى؟

– طبعا أذكر.. هل تشكين فى أنى أفعلها؟

– لا.. أنا أحلك من هذا العهد..

– ماذا؟.. وهل ترين أن لى حاجة فى الزواج؟

– بل أخشى أن تكون وحيدا فى يوم ما..

– لا يا رقية لا أحب مثل هذا المزاح..

– لا تغضب.. فقط خاطر جال فى رأسى.. دعنا نكمل مسيرنا..

– هيه.. كبرنا يا رقية.. مرت الحياة سريعا..

– نعم.. ليتنا نبدأ من جديد..

– نعم يا ليت..

– ترى ما حال شويكار وفيروز الآن.. أشتاق إليهما؟

– نعم والله.. أتمنى من الله أن تكونا بخير حال...

– آمين.. حكت لى اليوم أمى فتحية عن رؤيا..

– خيرا..

– قالت أن إبراهيم سيأتى..

– ليته يفعل كبرت أمى وأنا أخشى عليها.. تعرفين الأعمار بيد الله..

– لا ندرى يا حسن من يموت أولا.. ربما يرجع يوما..

– ربما..

– هل تريد القليل من حب العزيز؟

– وكيف لا أريد.. تذكرين المرة الأولى؟

– عندما كنت تنظر إلى تلك الفتاة على النهر وهى تغسل الملابس وكشفت عن ساقيها..

– أنت سوداء القلب يا رقية.. لم أكن أنظر إليها..

– بل نظرت..

– لا أبدا.. لم أكن أنظر.. ونحيت رأسى..

– تقسم على ذلك..

– أقسمت لك عشر مرات من قبل..

– وتلك الفتاة الجميلة.. الجالسة على النهر..

– هل جننت يا رقية.. إنها فى عمر ابنتى.. لن أشترى حب العزيز.. هيا نعود إلى البيت.. قد نالك الكبر وخرفت رأسك؟

– تعال يا حسن.. كنت أمزح معك.. (قالتها وهى تضحك)

– إن كان الأمر كذلك فلنشتر حب العزيز.. (نظرت إليها عابسا ثم ابتسمت)

ما زلت كما أنت.. لم يغيرك الزمن.. تغضب كالأطفال..

– وأنت أيتها العجوز مازلت تغارين..

مشينا فى ذلك اليوم حتى نسيت قدمانا الطريق ووصلنا إلى الجيزة.. حيث الأهرامات وأبو الهول المدفون نصفه تحت الرمال.. ينظر إلينا وكأنه يقصد هذا النظر.. جلست رقية على شاطئ النيل وأطالت النظر إلى الجهة الأخرى حيث الهرم.. وقالت:

– هل دخلت هذا الهرم من قبل؟

– كيف أدخله.. إن به من الأهوال ما يشيب له رؤوس الولدان..

– تحاول أن تخيفنى..

– لِمَ تسألين هذا السؤال.. ألم نأت إلى هنا كثيرا من قبل؟

– نَعم أتينا.. لكن لم يخطر ببالى ذلك..

– فيم تفكرين أيتها المجنونة؟!

– تعرف..

– لا مستحيل..

– هل تظن أن أحدا سيدخله فى يوم ما ويكتشف سره؟

– ربما.. لكن أعرف من دخله.. ألم أحك لكى عن قصص الشيخ مسعود؟

– نعم أذكر ذلك.. ليتنى أدخله فأعرف ما به من عجائب..

– قومى يا رقية.. فلنرجع إلى البيت قبل أن يشط عقلك أكثر من ذلك.. هيا

بادرت بالوقوف والانصراف وهى تلحق بى وتقول انتظر يا حسن...

(١٤)

ينادى المنادى فى كل حدب وصوب.. وصل الطاعون إلى المحروسة.. وأصدرت كعادتها أمـــى التعليمات.. وصارت توصينى بالبخور وغيره.. وتوصـــى رقية بالفرش.. اعتدنا تلـــك الأمور فالطاعون ضيفنا الثقيل كلما انخفـــض النيل.. يجعله الله تلك المرة خفيفا.. الناس يســـمون هذا الداء كل مرة باســـم عجيب حيث تعرف من اسمه القصد فى أية مرة أصاب البلاد.. فى تلك المرة أسموه اسما عجيبا آخر «قارب شـــيحا الذى أخذ المليح والمليحة».. ســـبق هذا الداء مطر غزير أصاب البلاد.. أحدث هذا المطر سيلا.. أذكر تلك الأيام.. غمر هذا المطر الحانوت وأتلف الكثير مما به من أدوية وحبوب.. ولكن كان هذا أخف المصائب حينها...

لم أسمـــع تلك المـــرة إلى قول أمى بألا أترك البيـــت أبدا.. بل كنت أخرج بين الحين والحين.. كلما استغاث بى أحد لأطببه.. ولكن ما لهذا الداء طب فقط.. أستطيع أن أسكن ألمه قليلا.. أو أخفف من وطأته فقط.. يصاب المرء بهذا الداء فتظهر ندبة ســـوداء مكان لســـعة البرغوث الناقل للمرض.. كلما أنظر إلى تلك الندبة أعرف أنه الطاعون.. أخذ الكثير من النـــاس هذه المرة.. حتى إن هنـــاك بيتًا فنى عن آخره.. كنت أدعو كل يوم أن يعافينا الله منه.. لكن شاء الله أن يبتلينا به...

دخلـــت رقية وقد بـــدا عليها الإرهاق والتعب.. وظهر من شـــعرات رأسها بعض الشعر الأبيض وقد انسدل قليلا آخذا لون الفضة..

– طيلة اليوم أنظف فى البيت وأحمل الفرش.. آه كم تعبت اليوم!

– فعلا يبدو عليك التعب ولكنك جميلة حتى فى تعبك..
– هكـذا أنت دوما.. لا أجد منك غير معسـول الكلام.. ألا تكف عن هذا؟!
– وهل من شىء أجمل من العسل.. فيه الشفاء..
تغلبنى دوما.. بحديثك هذا.. مازال رأسى يدور كلما سمعته..
– نظرت إلى وقالت.. أشعر بدوار شديد يا حسن..
– لا تخافى سآتى لك ببعض من العسل الحقيقى..
– ألم شديد فى رأسى..
– كبرت يا رقية.. لم يعد فى وسعك ما تفعليه هذا كل يوم..
– أنا لم أكبر.. أنت الذى كبرت.. آه رأسى يا حسن..
– أمالت رأسها فرأيت ندبة على رقبتها..
– ما تلك الندبة يا رقية..؟
– أين تلك؟
– فى رقبتك؟
– أى ندبة يا حسن تقصد..؟
– تلك..
– أهذا هو يا حسن؟.. قل لى..
– لا لا.. إن شاء الله ليس هو..
– لا أخبرنى بالحقيقة يا حسن.. هو.. هه.. هو؟
– ربما تكون ندبة قديمة.. لا تخافى..
– بل هو.. أعرف.. أشـعر بالتعب منـذ البارحة.. لا حول ولا قوة إلا بالله..

جريــت بعيدا أخرج من الغرفة لأجــد مكانًا أصرخ فيه.. عرفته منذ رأيته.. هى تلك الندبة الســوداء لا غيرها.. لا ربما ليســت هى أســأل طبيبًا آخر.. نعم سأســأل طبيبًا آخر.. دخلت مسرعا إلى غرفة فارغة.. وقفت لا أعرف ماذا أفعل.. يارب.. يااااااااااااارب.. أجعلنى معها.. لا تتركنى وحدى فى هذا العالم.. إن ماتت فماذا أفعل.. أكون وحيدا.. وفطيمة إنها لا تزال صغيرة تحتاج إلى أمها.. أسألك باسم حبيبك النبى لا تتركنى وحدى بعدها.. سأذهب إلى منصور على.. نعم إنه طبيب جيد أعرفه منذ زمن.. ذهبت مســرعا أمشــى فى الشارع مظلما.. حتى كسر هذا الظلام مشــاعل آتية من بعيد.. إنها جنازة.. ترى من مات.. لا لن يأخذها الطاعون منى.. وصلت إلى دار منصور على.. وأصررت أن يأتى معى إلى البيت.. وما إن رأى الندبة.. هزهز رأســه أى نعم.. قل لى غير ذلك يا منصور.. ليس لدى ما أقوله يا حسن هذا أمر الله...

لا أملك الآن ســوى الدعاء.. تعطل أمامى كل العلم الذى تعلمته فى التطبيب.. كيف أتصرف.. أجلــس إلى جوارها حتى تموت.. حرارتها بدأت فى الارتفاع ســريعا.. كمادات الماء.. ربما يكون منصور مخطئا.. علها حمى وستشــفى منها.. نعم إن شــاء الله ستشفى.. جئت بكرسى إلى جوار الســرير حيث ترقد.. ومكثــت الليل كله إلى جوارها.. وعندما أفاقت.. قالت اذهب بعيدا عنى يا حسن.. كيف لى أن أبعد عنك.. أعد لها الطعام تحتاج إليه الآن..

– لم لا تأكلين يا رقية؟

– لا تحاول يا حسن.. قضى الأمر..

– لا لا تقولى هذا أبدا.. ستكونين بخير.. إنها فقط حمى..

– لا تضحك علىَّ وعلى نفسك يا حسن.. أنا أعرف..

– لا تكونى متشائمة.. كلى.. حاولى..

– لا.. لا أقدر أن أشم رائحة الطعام حتى..

مسكينة رقية.. ليتنى أستطيع أن افتديها بروحى.. أشد البلاء يا ولدى بلاء فراق المحبين.. ربما يكون نزع الروح أهون منه.. وما أشد بلائى.. أعرف أنها أيام وسنتفارق إلى الأبد.. وسأظل وحيدا فى تلك الدنيا.. هرمت وضعفت شوكتى.. وفطيمة الصغيرة سيأتى اليوم وترحل عنى بعيدا هى الأخرى كأختيها.. وأمى العجوز من يكون إلى جوارها.. أدركت من اليأس ما جعلنى أقبل الأمر.. أو أحاول أن أتقبله.. ودعوت الله أن يلهمنى الصبر.. تنام رقية طويلا قليلا ما تفيق.. المرض شديد الألم.. بل أشد من ألم الفراق.. بالليل تجعلها الحمى تهزى ببعض الكلام.. قالت لى وكأنها تحدثنى فى نومها:

– بعد موتى اجعل الناس همك يا حسن.. ينفعك هذا فى الدنيا والآخرة..

كثيرا ما تلجأ إلى الناس.. ولكن هذا الأمر لا يشغلنى طوال الوقت بل بعضه فقط.. نعم.. ليكن هذا دربى.. وصيتها.. أوصتنى بالفقراء والمظلومين الذين لا ينتهون أبدا من المحروسة...

يأتى من المسجد صوت ينادى.. ترى من الذى مات تلك المرة.. الأسطى حسن السكاكينى.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. رحمه الله كان رجلا عظيم العلم والصنعة.. اللعنة على هذا الطاعون.. أما كان يترك ديار مصر أبدا فى حالها.. أما كفانا بلاء.. المماليك وأى بلاء هؤلاء الشراذم...

أفاقت رقية فى الليل.. أضفى عليها التعب الشحوب.. قالت بصوت متهدل من المرض:

– حسن.. والله إنى قد أحببتك..

– أمسكت بيدها غير عابئ بشىء من المرض.. ووضعتها على فمى.. وقلت لها:

– وأنا يا رقية.. ما أحببت مثلك أبدا فى تلك الدنيا..

– لكل شىء نهاية.. حتى الحب ينتهى..

– لا بل سيظل فى قلبى حتى موتى.. بغيره أموت..

ثم أغلقت عينها فى غياب آخر عن الدنيا.. عند الفجر.. سمعت من المسجد صوتا.. يعلن أن السلطان مصطفى رزق بمولود وأعلن أن تعلق الزينة فى يومها.. أى شىء أحقر من هذا.. لا يوجد بيت فى المحروسة إلا بـه ميت.. هل ضاعت الرحمة من قلوب هؤلاء.. سمعت صوتها من جديد يناديني...

– نعم يا حبيبتى..

– جاءت أمى يا حسن.. تناديني..

– لا يا رقية ابقى معى.. (قلتها وعينى تفيض بالدموع)

– لا تكن كالأطفال يا حسن.. تصبر.. فالدنيا قصيرة مهما طالت يا حبيبى..

– كانت تلك آخر كلمات لها قبل الشهادة تخرج من فمها.. حملتها بين ذراعى.. رقية لا تذهبى عنى يا حبيبتى.. وأخذت أقبلها من الندبة.. عسى أن يأخذنى المرض.. لا يا رقية.. سأكون وحدى بعدك...

تركتها بين يدى حتى الصباح .. دخلت أمى من الباب.. فوجدتنى علـى هذه الحال أحملهـا بين ذراعى.. قالت: مشـيئة الله يا ولدى.. اذهـب الآن احضـر الكفن ومن تغسـلها.. نظرت إلى أمـى.. لا أسمع ما تقولـه.. ثم دخلت فطيمة وارمـة العينين من البكاء.. أدركت حينها الأمـر.. وعلمت أن علىَّ أن أتحمل هذا.. جفت دموعى.. أين البكاء؟.. لم لا أبكى؟.. خرجنا بها إلى المسـجد الحسـينى.. صلى عليها الناس فى الظهيرة.. ومشينا إلى القرافة ومن حولنا تعلق زينة مولود السلطان.. رجعت عند البيت فوجدتهم يعلقون الزينة عنده.. لم أسـتطع أن أملك نفسـى.. أمسكت الزينة أسقطها على الأرض.. أمزقها بيدى.. صرخت فيهم.. أما عادت الدماء فى عروقكم تسـرى.. كفوا عن هذا واذهبوا من هنا حالا.. قلتها صارخا...

رجعت إلى البيت وجلسـت إلى مكانها انتظر الموت.. لا يأتى.. طال الانتظار حتى أعلن من المساجد أن المرض قد ذهب عن مصر بعدما حصد من أهلها الكثير...

حزنـت كثـيرا لهذا.. ألن أموت الآن.. بقى لى فـى تلك الدنيا عمر بعدك يا رقية.. فليعنى الله أن أقضيه وحدى...

وجـدت باب البيت يطرق.. من بالباب؟.. إنه شـاكر .. الحمد لله إنـه لم يذهب فى موجـة الموت تلك.. جاء يعزينى وكعادته عندما يريد أن يشغلنى عن حزنى.. فيتحدث فى السياسة..

– أما سمعت آخر الأخبار.. قد صار الأمر لعلى بك الكبير..

– هذا الذى كان أميرا للحج..

– رجع بعد الذى كان منه من مؤامرة لقتل عبد الرحمن كتخدا

– نعم..

– هذا الرجل ليس سهلا.. ذو مكر ودهاء..

دعك من هذا ألن تعاود فتح الحانوت .. هيا يا رجل لا تكن ضعيفا..

قمت معه يومها وعاودت الحياة من جديد.. ومرت الأيام من جديد.. ولكن الذكرى تبقى دائما فى رأسى.. لا تزول أبدا.. أبكى كلما ذكرتها.. وأحيانا أنسى أنها ماتت.. فأدخل الغرف أبحث عنها.. ربما يكون هذا الفراق حلما.. ولكنى سريعا ما أصدم بالواقع.. فيعاودنى الشجون من جديد...

قررت أن أجعل لحياتى شكلا آخر.. يشغلنى عن حزنى وشجونى.. أجلس بين الناس فأناقش مشكلاتهم وأساعد فى حلها.. بدأ ذلك سريعا بعدها.. كنت أجلس فى الحانوت فسمعت صوت شجار ذهبت لأنظر ما الأمر.. وجدت الحاج عبد الواحد القماش يضرب زوجته.. فلما سألت عن الأمر قالوا لى إنها إحدى زوجاته الأربعة وخرجت تزور أهلها دون إذنه.. اخترقت الحشد الذى اكتفى بالمشاهدة لأذود عن تلك المسكينة.. وقد كشف الياشمك عن وجهها وسقطت أرضا تصرخ بشدة.. وهو ينهال عليها ضربا.. لم أر يوما مثل ذلك فى حياتى.. ما الذى يجعل مثل هذا الشاب يضرب زوجته هكذا أمسكت بيده وقلت:

– اهدأ يا بنى..

– لا مؤاخذه يا شيخ حسن.. هذه زوجتى وأنا حر فى ضربها..

– نعم أنت حر.. لكن فى بيتك ليس بين الناس فى الشارع.. تعال معى.. وأنت يا بنيتى اذهبى إلى بيتك

– انساق معى إلى الحانوت وانفض الجمع الحاضر هذا..

– اجلس يا ولدى..

– أمرك يا شيخ حسن..

– اسمــع يا ولــدى.. لا أريد أن أسمع ما الذى حدث.. ولا أريد أن تحكى لى.. اسمع منى هذا.. وفقط. أوصى رســول الله بالنســاء خيرا.. وذلك لرقتهن وضعفهن.. هل ترضى ما فعلته هذا لأختك؟

– لا يا شيخ..

– إذًا فــلا تعدها.. فتجدها فى أختك.. اذهب الآن وترفق بزوجتك تلك والأخريات..

كانــت تلك الكلمات بســيطة.. فقــط كنت أريــد أن يكف عن تلك الفضيحــة.. ولكن أتت زوجته تلك بعد أيام قليلة تشــكرنى على ذلك.. وقالت إنه قد تغير فى معاملتهن.. تعجبت مما تقول فى أول الأمر ولكنى لاحظت التغير عليه فعلا بعدها.. فلما ســألته قال: يا شيخ إن لى خمس أخوات لو عاملهن أزواجهن مثلما فعلت فسيعود ذلك على بالمشاكل...

على مثل هذا النحو كنت أقضى ســاعات النهار.. فأعود إلى البيت متعبا.. حتى عرفت بقاضى التجار فى حى الحسين.. فما من متخاصمين إلا ومرا بى فأحكم بينهما قدر ما أعلم من الأمر فيرتضيان حكمى...

فى الآونة الأخيرة عندما كثرت الســرقات وقطاع الطريق فى القاهرة لجأت العامة إلى نوع آخر من الشرطة التى قد فرغت للمماليك.. وبعدت عن الناس.. فانتشــرت السرقات وقطاع الطرق فى كل مكان.. فظهرت مهنة من نوع جديد مهنة الفتوة نشــأت منذ عصر ســلاطين المماليك..

فكان لكل حارة من حوارى القاهرة فتوة يشكل عصابة من الرجال المنوط بهم حماية الحارة من اللصوص وقطاع الطريق مقابل مبلغ من المال يأخذ من كل بيت فى الحارة.. ومع ضعف الحال فى عهد المماليك أو شـيخ البلد وانصرافهم للصراع السـلطوى الدائم قويت تلك المهنة وكثر رجالها مما أشعل صراعًا من نوع آخر بين الفتوات وبعضهم.. ولكن هذا الصراع بمفهـوم الفتوة.. فلا يعرفـون غير الدم والاقتتال.. كنت دوما أحاول أن أوقـف هذا الصراع أو أحـد منه مما جعلنى رجلا مقبول الحكم بينهم.. وكان هذا لعنة على.. أقحمت نفسى فيما لا أقدر عليه...

* * *

(١٥)

أرسلت شـويكار هانم أخت رقية رحمها الله اليوم عبدها الحبشى.. وأبلغنى أنها سـتأتى لزيارتنا اليوم.. لم أرها منذ وفاة رقية.. لعل الأمر خـير.. ذهبـت إلى الحانوت بعد العصر.. فى أول يـوم بعد ما كنت قد أغلقته لأسـبوع كامل.. هبت رياح عاتية أقلعت الأشـجار وكانت وبالا على مصر.. أغرقت من المراكب والقوارب كثيرا فى الإسكندرية وتلف فى النيل بعض المراكب.. الحمد لله مرت بسلام.. كان توقيتها غريبا لم نعتد فيه الريح.. ولكن يتغير حال البلاد من كل اتجاه.. حتى فى المناخ...

أعـرف لماذا سـتأتى الهانم اليـوم.. إنها تريد طلـب فطيمة لابنها مصطفى.. ألمحت لى بذلك من قبل.. لا شىء آخر يجعلها تأتى إلينا.. أعرف عن ابنها هذا أشـياء شـنيعة.. فأعرف أنه يزور بيوت الفجور.. لمثل هذا الولد لا أعطى ابنتى أبدا.. فطيمة لا تزال صغيرة.. وصية أمها أن أرعاها.. وألا أفرط فيها أبدا إلا لمن يسـتحقها من الرجال.. أما هذا المدلل.. فلا أبدا...

جـاءت راكبة العربة.. ونـزل الحورانى أمامها ليفتـح الباب وهى ترتدى الفستان على الطراز التركى كعادتها.. رحبت بها وبولدها الذى أتى معها.. كل ما يفعله طيلة الوقت هو أن يلعب فى شـاربه الذى قد بالـغ فى تهذيبه.. كنت أنظر إليه مشـمئزا.. وحاولت أن أصرف عنه نظرى إلى شـىء آخر.. جلست شويكار هانم.. بين يدها كيس من المال صنـع من القطيفة .. يبدو عليه أنه قـد امتلأ عن آخره.. لم تقدم للأمر

رمــت الكيس على المنضدة إلى جوارها.. وقالت بوقاحة هذا الذهب مهر لابنتك فطيمة.. نظرت إليها ثم إلى الكيس.. وقلت لها:

– عن أى مهر تتحدثين؟

– أنا أطلب يد ابنتك فطيمة لابننا مصطفى...

– لا أفهم ما تقصدين (تعمدت أن أتصنع الغباء)

– ألا تريــد أن تزوج ابنتك.. أنا خالتها وأولى الناس بها.. هى ابنة الغالية رقية..

– ولكن فطيمة لا تزال صغيرة..

– ألم تزوج فيروز فى مثل سنها؟

– نعم.. ولكن فطيمة لا تزال ضعيفة.. لا تتحمل مشقة الزواج..

– عن ماذا تتحدث يا شيخ حسن؟.. هل ترفض طلبى؟

– لا أبــدا يا هانم.. ولكن ابنتــى فطيمة لا تزال صغيرة على ذلك.. يرزق الله ابنك البك بزوجة صالحة تتحمله..

– أنــت ترفض طلبى.. إذًا هيا يا مصطفــى.. لن أدخل هذا البيت أبدا بعد ذلك..

بالرغم من سوء الموقف فإننى كنت سعيدا جدا بالذى حدث.. لا أريد لابنتى الشقاء.. ما حالها فى بيت البك.. إنها مشقة لا تتحملها.. ربما لــو تزوجت مثــل أختيها وبعدت عنى لكان أهون علــىَّ من أن أتركها مع هؤلاء الوحوش.. ذهبت إلى غرفة أمى كانت جالســة على سريرها.. وفطيمة تجلس على أريكة إلى جوار المشــربية.. بمجرد ما فتحت الباب نظرت إلىَّ أمى فى لهفة لمعرفة الأمر.. قالت:

– خيرا يا حسن..

– أبدا يا أم.. جاءت كما توقعت تطلب يد فطيمة لابنها مصطفى..
– وهل قبلت..؟
– لا.. ابنتى لا تزال صغيرة على هذا الأمر.. أليس كذلك يا فطيمة؟
– ليتنى أظل صغيرة يا أبى ولا أتزوج هذا..

كانت تكرهه منذ أن كانت صغيرة.. فقد كان طفلا كريها كما تقول.. كثير البكاء والخدع.. متطلعا إلى ما فى يد غيره.. كثيرا ما كانت تجلس علـى حجرى وتحكى لى عن أفاعيله التى كان يرتكبها منذ صغره حتى كبر.. فبينما كانت رقية جالسـة مع أختها فى زيارة لها وكانت معها فطيمـة.. رأت هـذا الولد يدخل سـكران من البـاب.. يتخبط فى كل شـىء حوله.. استأذنت أمه وجريت حتى تدخله لغرفة أخرى فلا نراه ولا يراه أبوه على هذه الحال.. قاطعت أمى الحديث وقالت:

– إلى متى ستتركها إلى جوارك يا حسن؟
– لو بيدى يا أم أبدا.. لا أدعها لأحد.. أليس كذلك يا صغيرتى؟
– نعم يا أبتِ.. ليتنى أبقى هنا معك ومع جدتى..
– ألم أقل لكى يا أم؟
– يقدم الله الخير يا ولدى..
– سيرزقك الله خيرا منه يا بنتى.. إن شاء الله..

ضممتها إلى صدرى وقبلت رأسها.. الحمد لله أن فطيمة عاقلة تفهمت الأمر سـريعا.. ليسـت كهؤلاء البنات يردن الزواج وكفى.. لم يطل أمر انتظارهـا طويلا.. فجـاء إبراهيم بن عبد الصمـد القماش يطلب يدها.. رجـل طيب كأبيه رحمـه الله.. تركه أبوه صغيرا فربـى أخواته حتى

كـبرن.. وزوجهن والتفـت إلى حاله ليتزوج.. لم يكن كبيرا فى السـن بالرغـم من هذا.. كان صغيرا.. منذ صغره يأتى إلى الحانوت يشـكو إلىَّ حاله ويحكى لى عن مشكلات يقابلها فأساعده فى حلها.. أوصانى أبوه بـه منذ كان صغيرا.. هذا ما آمـن على ابنتى عنده.. وتكون قريبة منى كفانى من البعد أختاها...

يوم عرفت فطيمة بالأمر فرحت فرحا شديدا.. بالرغم من أنها أبدت الخجل المعهود من البنات.. أما أمى فكانت تؤنبنى دوما أننى لم أعطها لابن خالتها.. أسمع ما تقوله وأسـكت.. ولكن فى يوم كان هذا الكلام بمثابـة خنجر طعنت به فطيمة.. فالنسـاء بطبعهـن على هذه الحال.. جـرت عندما سمعت هذا من جدتها إلى غرفتها وأغلقت الباب.. وقفت عند الباب أسـتأذن الدخول.. سمحت لى بصـوت أغرقه البكاء حزنا.. دخلـت الغرفة فوجدتها جالسـة إلى الحائط كعادتهـا عندما تغضب.. جلست إلى جوارها وقلت:

– لا تحزنى يا بنيتى.. إن جدتك لا تقصد أن تغضبك أبدا..

– هى ضاقت بى يا أبى.. لا تريدنى فى البيت..

– أى حديث هذا.. إنها تحبك أيتها الحمقاء.. أنت لا تدركين ذلك..

– تكرر قولها هذا كثيرا.. حتى أنت فى خارج البيت..

– كـبرت جدتك يا فطيمـة.. لم تعد تدرك ما تقـول بحقه.. أنت تعرفين هذا..

– هل تريدنى أن أرحل من البيت أنت أيضا يا أبى؟

– نعم.. طبعا.. لقد صرت تأكلين كثيرا..

اختلــط بكاؤهــا بالضحك.. كان هذا ما أبرد قلبهــا قليلا.. ليتم الله عليهــا بالخير مع إبراهيــم.. ولكن كيف أعد لها ما تحتاجه العروس.. لا أعــرف إلى من ألجأ فى هذا الأمــر.. لا ليس أمى لم تعد تتحمل هذا قــط.. وخالتها فى خصام وخصامها فاجر.. فى أثناء تلك الحيرة.. جاء إبراهيم وقال لى: لا تقلق يا عمى ســتتولى أخواتى الأمر.. الحمد لله هذا بركة دعــاء أمها رحمها الله.. وكانت تلك هــى العقبة الثانية.. كانت تتذكر أمها دوما وتبكى.. وتتذكر أنها لن تحضر يوم زفافها مثل أخواتها مــن قبل.. ليكــن الله معى ويعيننى فى ذلك.. ويوم الفرح جلســت فى معزل تبكى..

– لِمَ تبكين يا حبيبتى؟

– كَنت أحتاج أمى كثيرا هذا اليوم..

– ومن قال إنها ليست موجودة.. إنها حولنا الآن.. انظرى..

– أمسكت المرآة لأضعها لترى وجهها..

– أليست تشبهها تلك الصورة؟.. أنت جميلة مثل أمك يا صغيرتى.. وأعرف أنها الآن سعيدة لزواجك.. مثلى تماما..

– حقا يا أبى..

– طبعا.. من هذا الذى لا يكون سعيدا بوجه هذا القمر؟

– لا تبالغ فى الأمر يا أبى.. أمى كانت أجمل منى كثيرا..

– حقا.. لا بل أنتِ الأجمل..

– لا بل هى..

كنا نداول ذلك طيلة الفرح.. أسعدها الله وأسعد زوجها.. لم يبق غيرى وأمى فى المنزل الآن.. أصبحت دارا للمسنين كما كان يقول حسونة.. ترى أين هو الآن.. لا أعرف عنه شيئًا.. هل كسا الشيب لحيته مثلى.. ربما.. ولكن هل كسا الوقار رأسه.. يعلم الله.. ما الذى يذكرنى به الآن.. لا أعرف....

* * *

بينما أجلس فى الحانوت.. إذ بمنادى ينادى فى الناس.. قامت ثورة فى الإسكندرية.. الإسكندرية تنفض عن كاهلها غابر المماليك.. اقتربت من الرجل أسأله.. فقال قام بهذا الشيخ إبراهيم العطار عالم الإسكندرية.. سمعت الخبر وأنا قلق على إبراهيم.. أخشى عليه من مصير أستاذه.. لم يجد المماليك غير أنهم ادعوا بكفر الرجل.. والله يعلم ما فى صدره.. وهل يكفر شيخ عابد؟.. لا حول ولا قوة إلا بالله.. ليتك تعود يا إبراهيم إلى القاهرة فتسلم.. ربما وصله خبر على بك الكبير.. نعم هذا أكيد.. وأى كيد ومكر لعلى بك هذا.. وكم رجل قتل حتى يستأثر بالحكم.. صار الحاكم.. هذا يفتح الباب أمام المماليك.. يجعلهم يرجعون إلى سلطانهم القديم.. أنرجع إلى عهد السلاطين ثانية.. يرحمنا الله...

أرسل على بك فى طلب شيوخ الأزهر.. فخرج منهم عدد يكلم الناس فى حرمة الخروج على الحاكم حتى لو كان عربيدا.. وذلك درءًا للفتنة.. ويخبرون الناس أن إبراهيم العطار هذا كافر ويريد بديار الإسلام سوءًا.. العامة والبسطاء سريعا ما يصدقون هذا القول.. يخشون على دينهم..

ربما لا يحسنون الصلاة ولا الصوم.. ولكنهم يخشون على بلادهم.. وعلى دينهم.. وأسرع فى إبلاغ السلطان.. لك الله يا أخى...

هل أخفى الأمر عن أمى وكيف هذا.. لا لن أخبرها.. وإن لم أخبرها فكيف بهؤلاء النسوة اللائى يزرنها كل حين وآخر.. كيف أمنعهن؟.. الحمد لله لا يعرف العوام كثيرا عن أصل إبراهيم العطار.. لو علموا أنه إبراهيم الزوق لأتوا يحرقون الدار والحانوت.. ويقتلوننى وأمى...

مرت أيام على الخبر وجاء الرشيدى فتوة الحى الحسينى.. يسألنى عن إبراهيم أخى.. قلت له أنه فى البحيرة.. حتى لا يعرف عن الأمر شيئًا فيؤذنى.. ولكنه قال:

– اسمع يا شيخ حسن أنا أعرف أنه الشيخ إبراهيم أخوك.. لا تخف هذا بيننا.. ولكن كنت أسألك حتى أحمى البيت منهم إذا عرفوا..

– لا تخبر أحدا أيها المعلم..

– لا تخف.. هذا سر لن يعرفه أحد أبدا.. تعرف أنا أؤيد هذه الانتفاضة.. علها تردع المماليك عن أمرهم..

– اخفض صوتك يا معلم.. سيسمعون..

– أستأذنك..

– تفضل.. كما اتفقنا..

– نعم.. دونه رقبتى..

أخبرنى اليوم شاكر أن على بك اجتمع بقاسم بك وإسماعيل بك أبى مدفع ومحمد كتخدا زانور.. وأوصى بجند إلى الإسكندرية.. فقد قام أهل الإسكندرية وأغلقوا الثغر ولم يقدر عليهم الجند هناك.. بالرغم

مــن ضرب عدد منهم بالرصاص فمات منهم قرابة المائة رجل.. أى قتل هذا.. أيقتل الرجل على أن يذهب المماليك من مصر! !.. ولكن منذ متى ويترك الكلب عظمة من بين فكيه بتلك السهولة.. لم يقدر إبراهيم الأمور حق تقديرها.. يعلم الله ما فى الضمير ويسمع...

فى ليلة جاء إلى البيت على بك الانكشارى.. فقد علا بعد الذى صار من على بك الكبير وأصبح من خاصته.. تلك هى المرة الأولى التى يحضر إلى البيت.. تغير شكله قليلا عن آخر مرة رأيته فيها.. زاد بعض الشيب عليه.. وزاد كبرا وتعاليًا.. بدأ حديثه بالقول اللين.. فقال:

– يا شيخ حسن أريد منك أن تكتب لأخيك لتهدأ ثورته تلك..

– ليس لى أن أكتب له يا بك.. أنا لم أره منذ سنوات طويلة..

– أنت أخوه يا شيخ حسن الكبير وسيسمع لك..

– على بك.. أنا لا أخاطب طفلا.. أخى شــيخ وأســتاذ لا أكتب له فيسمع كلامى..

– لا تغضبنى منك يا شيخ حسن..

– أنا لا أغضبك.. أنا حقا لا أعرف ما الأمر فأكتب له..

– بل ستكتب..

– أخرج مدفع الرصاص من جيبه ووضعه على رأســى.. وجعل آخر نحو أمى.. وجدت أن من الحكمة ألا أودى بنفســى وأمى المسكينة فى التهلكة.. وهذا الخطاب لن يضير أحدا.. قلت:

– ماذا تريد أن أكتب له؟

– أكتب له أن يكف عن تلك الثورة.. وأن يعود إلى القاهرة..

مـا كان لى غير أن أفعـل هذا.. أما أمى فقد كانـت تبكى.. كتبت فـى الخطاب كلمات مختصرة وحاولت أن أجعل خطى فيه مخالفا عل إبراهيم يدرك هذا.. كتبت «أخى إبراهيم كف عن تلك الثورة فالناس قد خافوا على أنفسـهم.. وعد إلى القاهرة.. بيننا من جديد».. أخذ الورقة وسريعا خرج بعيدا.. هذا دوما ما يجنيه أصحاب الحق.. بدأها الحسين رضى الله عنه فقتل حينما قال كلمة الحق.. وسب على المنابر.. لك الله يـا إبراهيم.. حفظك الله يا ولـدى.. كان هذا ما لدى لأفعله.. الدعاء.. صارت الآن أمى تعرف بالأمر.. خافت على ولدها كثيرا.. كانت لا تنام إلا قليلا.. ولا تأكل إلا قليلا.. وترفع يدها كلما ذكرت الأمر وتدعو له.. ثم يعاودها داء النسيان فتنسى.. كانت على هذه الحال.. حتى خشيت عليها.. فاشتريت جارية ترعاها.. كلفنى ذلك كثيرا من المال...

يوم اشـتريت الجارية كانت حسناء.. ظنت أننى اشتريتها لنفسى.. فدخلت لأنام فى ليلة شرائها.. وجدتها قد أعدت نفسها على الفراش.. لا أعرف لماذا أغضبنى ذلك جدا فنهرتها وأخرجتها من الغرفة.. شعرت حينهـا أننى قد أخون رقية.. كان الأمر بالنسـبة لى على محمل آخر.. كيف لى أن ألمس امرأة غيرها.. قد أحلتنى من عهدى الأول.. ولكن لا.. لا أقدر أن أعرف غيرها.. بالرغم من هذا فأنا الآن رجل كبير.. لا أسمح لنفسى بهذا أبدا...

فى الصباح وعدت الجارية الحسـناء واسمها حُسْنَى أننى سأزوجها فى أقرب وقت.. ولكن عليها أن تخدم أمى وترعاها...

(١٦)

وصلــت الأخبار من الإســكندرية.. أنهم أخمدوا ثــورة الناس عندما قتلوا منهم الكثير رميا بالرصاص.. وأمر على بك الكبير بإحضار زعيمهم إلى القاهرة.. ليعدم وتعلق رأســه على باب زويلة وترسل رأسه للسلطان فى إســلامبول.. بالطبــع وقع الخبر علىَّ كالصاعقــة.. أيكون المكتوب الذى أرسلته سببا فى ذلك لإبراهيم أخى.. لا أعرف ما الذى حدث غير ما تداوله الناس فيما بينهم.. إنها كانت ثورة جياع كما حدث من قبل فى القاهرة فى عهد سلاطين المماليك.. ربما ما يقولونه صحيح.. ولكنى لا أظن أبدا.. ليس إبراهيم.. أعرف أخى ربيته صغيرا.. وعلمته.. كيف لا أعرف أخى.. هو عابد طيلة حياته وكذلك كان شيخه رحمه اللّه...

أعــرف تلك الألاعيب جيدا فعلوها من قبل مع شــيخه.. نعم ادعوا عليــه كذبا بالكفر وطلقوه من زوجتــه رغما عنه.. وقتلوه بعدها.. رحمه اللّه.. لا يا إبراهيم لم أكن أريد أن تكون تلك هى النهاية.. ليتنى كنت جزعا فيها خائر العظم.. وكسا الشيب الرأس واللحية.. وانحنى الظهر من الكبر.. كيف لى أن أقف إلى جوارك.. وكيف يفهم الناس ما تقوله.. حرموا من العلم.. كما حرموا من العيش الكريم.. تكفيهم لقيمات يقتاتون بها.. ليستيقظوا فى الصباح وهم لا يجدون شيئا يأكلونه.. لينساقوا فى دوامة الحياة من جديد.. أشــعر أن أسمع أفكاره من بعيد.. وكأن شــيئا منــى يتحدث.. يجعلنى هذا بين الســخط وبين الحزن.. أســخط على المماليك بفعلاتهم فلا أغفر لهم.. وأســخط علــى الناس فلم يؤازروه كما

أراد.. ثـم ألتمـس لهم الأعذار.. ثم يعود الحـزن من جديد يطعن قلبى بطعنات مسمومة...

ما ذنب تلك المسكينة أمى؟! امرأة عجوز تنتظر الموت.. تعلم أن هذا بانتظار ابنها.. هل تتحمل هذا؟ .. لا أظن أن قلب أم يقدر على هذا فى شـدته فما بالك فى وهنه.. وكيف أخفى عنها الأمر وسـيدعى إليه فى كل حدب وصوب فتأتى الناس ترى الكبش يذبح ويفرحون بالدماء.. أى بلاء هذا.. يا رب لا تجعل قلب أمى يتمزق.. والله لموتها أهون علىَّ من أن ترى هذا أبدا.. وموتى أهون علىَّ من أن يؤذى أخى.. ليته ما فعل...

لم يطل الوقت برغم دعائى.. لم يطل الوقت حتى جاء خبره وأذيع على الملأ.. لن تسلم أمى من هذا أبدا.. ستعرف إن لم يكن من المنادى.. فمن الناس بالتأكيد ستأتى لها إحدى النسوة من فاعلات الخير تخبرها بالأمـر.. كيف لى أن أمنع هـذا؟.. خطرت فى بالى فكرة.. أجعلها عند فطيمـة فى بيتها حتـى ينتهى الأمر.. لم تكن فكرة جيدة.. ولكن القلق والتوتر دفعنى لهذا دفعا.. لم يكن لدى شىء آخر حينها لأفعله...

النـاس عندما سمعوا الأمر.. كأن حلما كان بين أيديهم فقدوه.. ربما تفقـد ولدا فلا تحزن كما تفعل عندما تفقد حلما.. لفقد الحلم حزن آخر كأن شيئا من أعضاء جسدك قد سقط وضاع بين أقدام الناس تدهسه.. فلا تستطيع أن ترجعه أبدا إلى جسدك.. وربما يموت المرء مع حلمه.. مئات السـنوات حكم المماليك مصر.. بأسماء مختلفة وفكر واحد.. لا يعرفون غير القهر والدماء.. جعلوا رائحة الدماء فى كل شـىء.. فى كل حى.. فـى كل حارة.. فـى كل يد طفل يحمل لقمة خبز فـى يده يحاول ألا

يــأكل منهــا إلا إذا قســا عليه الجوع.. فربما لا يجــد غيرها.. فى كل أب يــرى طفله محروما ولا يملك له غير الدعــاء.. وأحيانا البكاء.. أما أصحــاب الريب.. المرتابون دوما وأبدا.. المفتشــون عن الضمائر كلها.. لا تجد فى أعينهم غير الاتهام.. اللوم الحنق.. ربما يجرحونك بشــىء من اللمز.. أو بشــىء من الشماتة.. أما المفتشون عن الضمير فلا يملكون غير التكفير.. حتى إنهم يشــددون فى كل شىء.. أعرف لو طالوا قتلى مع أخى وقطع دابر الشــر كمــا يزعمون لفعلوا.. ليتهــم اكتفوا بذاتهم فعافاهم الله من الظلم.. وأى ظلم، ظلم باسم الدين.. يشقون عن الصدور فتلوح أيضا رائحة الدم...

عندمــا أنظر إلى حالهم هذه أتذكر.. أتذكر حال كل منهم.. ألم يقتل المماليك ولد هذا.. ألم يســب هذا المملوك ابنه هذا بغير حق.. ألم يسرق هذا.. أين أنــت الآن من كلمة الحق.. رضيت بالذل فأذلك الله.. ولكن لا أريد أن أقســو علــى الناس لو وجدوا خيرا فــى حكامهم لبدا عليهم ذلك.. ألم يقل الإمام على رضى الله عنه عففت فعفوا ولو رتعت لرتعوا.. فمن قتله غير الأذلاء.. لو فهموا ما أراد ما قتلوه أبدا.. ولو عرفوا مقامه ما سبه السفهاء على المنابر.. لعن الله فتنة السلطان.. تعصف بالمفتون.. فتفســد عليه دنياه كما تفســد عليه آخرته.. ربما سيأتى اليوم يفهم فيه الناس هذا فيخافون ويتقون.. ربما لا يكون قريبا.. ولا أظنه قريبا ولكنه سيأتى لا محالة...

فــى الصباح أتى جند من جنود على بك الكبير إلى البيت.. أخبرنى أن أخى قد وصل إلى القاهرة وهو الآن مسجون بالقلعة.. ويريد أن يرانى

قبل إعدامه.. حاولت أن أسـأله عن حاله حتى انصرف عنى.. غريب هذا الأمر.. ما هذه الإنسـانية غير المتوقعـة.. هل صفح على بك عنه.. أم أتى هذا الجندى على غير علمه.. أظن أنه أتى على غير علمه.. ربما رق لحـال إبراهيم.. على كل حال هذا ما أتوق إليه.. حاولت أن ألحق بالجندى.. ولكن صعب علـى الأمر.. فأخرنى عجزى وقدمى العليلة.. وصلت إلى القلعة مسـرعا قدر ما استطعت.. وجدت الجندى يتلفت من حولـه.. ثم أدخلنى من باب خلفى من القلعة وقال لى.. لا تكلم أحدا.. فقـط امضِ فى هذا الطريق.. مضيت إلى حيث أشـار.. ممر طويل مملوء بالغـرف الضيقـة.. كيف يصل النور إلى تلك الغـرف.. لا أدرى.. أكل تلك السـجون مليئة.. وجدت جنديا آخر أخذنـى من يدى وفتح أحد الأبـواب الحديدية الموصودة.. ثـم دفعنى دفعا داخلها.. لم تكن الغرفة صغـيرة كانت كبيرة عن تلك الأخرى التى قبلهـا.. كانت بالكاد يقدر أن يقف فيها رجل.. الأرض مفروشـة بالرمال.. يوجد بها شباك صغير يشع منه بعض الضوء فيدخل بعض من الحياة فى تلك القبور.. الرائحة فيها نتنة.. لا يتحملها بشر أبدا.. وقفت فى تلك الغرفة لا أرى شيئا.. ومن بين الظلام بدا رجل جالسـا على الأرض يسـند رأسه إلى الحائط.. نادى بصوت مريض..

– كيف حالك يا حسن؟

– إبراهيم.. أخى..

وجهه مصفر شـعره طويل متناثر ولحيته شعثاء.. لحيته كثة ليست على حالها القديم.. فيها بعض من الشعر الأبيض.. وشعره طويل خالطه

أيضا الشـعر الأبيض.. وانسـدل على وجهه فلا يعرف أن يرفعه حتى أراه.. مكبل بالسلاسل فى قدميه وفى يديه.. لم تلك السلاسل؟.. كيف سيهرب من كل تلك الحصون.. ومن هذا الباب الفولاذى...

انكببت عليه دون أن أشـعر.. أمسـح على رأسـه وأرفع الشعر عن وجهه.. ثم أقبله.. فى كل وجهه.. حاول أن يضحك ولكن الألم منعه.. فقال بصوته المجروح:

– كفى هذا يا أخى.. لا أقدر عليه..

– خذنى إلى هذا الضوء الداخل.. أريد أن أرى وجهك..

– حاولت حمله فلم أقدر.. فسـاعدته حتـى وصل إلى الضوء.. نظر إلىَّ طويـلا وأمعنت النظر إلى وجهه.. ما هذا الوجه الذى أنت راجع به يا إبراهيم.. عينان تحوطهما هالة من السـواد.. وجراح فى الوجه.. أى وحوش هؤلاء حتى يصنعوا به ذلك؟!

– كبرت يا حسن..

– وأنـت كبرت يا ولدى.. كبرت فى كل شـىء.. حتى فى مقامك عندى..

– اييه.. الحمد لله أننى سمعت منك هذا..

– إياك أن تظن أن المكتوب الذى أرسلت كان منى..

– لم يصلنى شىء.. انفض الناس قبل أن يصلنى.. (قالها ساخرا..)

– جئت لك ببعض الطعام.. تتقوت به..

– وما فائدة الطعام.. كلها ساعات وألقى وجه الله الكريم..

– لا تقطع قلبى أكثر من ذلك يا إبراهيم (وترقرقت الدمعات منى)

– لا يا حسن.. أنا لا أريدك أن تبكى.. أين رباطة جأشك يا رجل.. اسمع لقد عشت لشىء وسأموت من أجله.. هذا ما علمنى إياه أستاذى..

– إذًا سنأكل معًا.. كما كنت صغيرا.. تذكر هذا؟

– بــل لا أذكــر غير هذا.. الطفولة تهون علــى الحياة كلها.. تذكر يوم العربة..

– التى كادت تدهسك..

نعم.. يوم أخذتنى بعيدا عنها.. ضمنى يا حسن..

– كم أشتاق إليك يا أخى..

– وأنا..

– كيف سمحوا لى بتلك الزيارة؟

– آه.. أبــدا أتى بالليل قاســم بك.. فوجدنــى أصلى.. انتظر حتى انتهيت.. وقال لى ألســت كافرا.. فقلت لــه: أيوجد كافر يقوم الليل.. أليس الأمر مضحكا؟! قال: اسمع يا ولدى أعرف أن ما يدعونه باطل.. ولكن ليس عندى شــىء أفعله فأطلب منى شــيئا.. طلبت أن يسمح لك بزيارتى.. وكان هذا..

– غريب هذا الأمر..

– لا هكذا تسرى الأمور دوما.. أنا مقتول لا محالة..

– أين أولادك الآن؟

– أولادى هيه.. سفهاء العامة أحرقوا البيت.. فهربت بهم الجارية ولا أعرف عنهم شيئا..

– كيف هذا.. سأبحث عنهم فى كل مكان حتى أجدهم..

– لا عليــك.. لن تجدهم هربت بهــم إلى البحر لا أعرف وجهتها.. هكذا أمرتها يوما إذا حدث سوء..

– هل لك أن توصينى بشىء؟

– لا.. لم يعــد لدى فــى الحياة غير بعض أنفاس.. لا تتعب نفســك يا حسن.. سأذهب منها كما جئتها بلا شىء.. هكذا مات أستاذى أتذكر؟!

– رحمه الله..

– نعــم رحمــه الله.. هذا ما أوصيك به.. الدعــاء بالرحمة.. كيف حال أمى؟

– أمك فى البيت أحاول أن أخفى عنها الأمر.. تدعو لك دائما..

– الحمد لله.. وبناتك.. ورقية.. كيف حالهن؟

– رقيــة رحمها الله منــذ أعوام.. وبناتى تزوجــن جميعا.. آخرهن فطيمة الصغيرة..

– تعبت بعد رقية يا حسن؟!

– وأى تعب يا أخى.. أى تعب؟!

– لا أريد أن يبكينى أحد.. هل ترانى على خير؟

– نعم إن شاء الله..

– إذًا.. فلا بكاء.. أخبر أمى بهذا.. بل أخيرا سأرتاح..

– هل تعبت أنت أيضا؟

– حيــاة طويلة مرت على كل حال.. فلقد عشــنا فرحا وحزنا فراقا ولقاء.. وأدعو الله أن يتمها بخير.. وأحسب نفسى عنده شهيدا للحق..

– اللهم آمين.. إن شاء الله.. إن شاء الله..

– فتح الجندى الباب وقال إن على بك آت إلى هنا.. وعلىَّ أن أسرع فـى الخروج.. خرجت مسـرعا إلى الباب الخلفـى للقلعة حيث جئت منـه.. تلك هى المرة الأولى التى أدخل فيها تلك القلعة.. ما أضخمها.. وما أعظم بنيانها.. بمجرد ما خرجت منها.. عاودنى البؤس من جديد.. هذه هـى المرة الأخيرة التـى أرى إبراهيم فيها.. غدا سيحشـد الناس فى سـاحة القلعة.. ليشـهدوا قطع رأس الكافر.. الخارج على السلطان وحكمه.. هذا المسـكين إبراهيم الزوق.. النجار الصغير الذى كان يلعب فى الشـارع.. فيسقط على الأرض من ضعفه.. هذا الأشعث الأغبر الذى بين تلك الأسـوار.. ليتنى أصرخ فى الناس وأقول لهم أفيقوا أيها الناس مـن غفوتكـم.. وأفعل مثله.. ولكن آنى ذلك بعد هذا الشـيب والكبر.. كيف أحارب هذا الزمان فأعود من جديد؟...

رجعت إلى البيت حزينا بائسـا.. يأخذنى البكاء تارة.. فأتذكر كلام إبراهيم تارة أخرى.. فأمسـك الدمع.. يا لأمى المسكينة.. لم تنقطع عن البكاء منذ يوم أتى على بك الانكشارى إلى البيت.. كيف لا يدرك هؤلاء هـذا الحد الضعيف بين الحياة والموت.. أنفاس فقط وسـتنتهى.. حتما سـتنتهى.. فلا يبقى لهم غير بؤسـهم وشـقائهم فى الآخرة.. لو علموا لأراحوا واستراحوا.. ولو سمعوا ربما تكون لهم موعظة فيمن كان قبلهم.. ولكن هيهات قست القلوب...

لم أنم ليلتهـا.. لم أفكـر حتـى أن أفعل.. أنتظـر الصباح.. أذهب لأرى أخـى تقطع رأسـه على الملأ.. أية قسـوة تلك التـى جعلت فى قلـوب هؤلاء.. ألا يخشـون الله أبدا.. وجاء الصبـاح.. ونادى المنادى

واحتشـد الناس عند القلعة.. جاءوا بإبراهيم مكبلا.. ثم جعلوا يديه إلى ظهـره.. وأجثوه حتى يمكنوا للرأس.. كسـر صوت العامة وكل الجمع صـراخ أمى.. ولدى.. من أخبرها لا أعرف.. يلحقها إبراهيم زوج ابنتى فطيمة.. يحاول أن يمنعها.. ولكن أى قوة تلك تمنع امرأة من رؤية ابنها للمرة الأخيرة.. سمع إبراهيم الصوت ونظر يبحث عنها.. شقت الصفوف وجمع الناس.. ووصلت إلى حيث أوقفها الجند.. ابتسـم إبراهيم.. وهى تنظر إليه باكية.. يلجمها البكاء فلا تنطق.. ثم قالت بصوت عالٍ وكأنه حمل إلى السـماء.. «ولدى».. نظر إليها إبراهيم بابتسـام المطمئن وقال: لا تخافى على يا أم.. وضع السـياف رأسـه.. فقال: أشـهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.. ثم انقضى كل شىء...

لم تتحمـل أمى مشـهد هذه الدماء.. جرت على السـياف تمسـك بمعصمـه.. وتقول: قتلت ولدى.. قطعك الله قطعك الله.. ثم سـقطت علـى الأرض.. لم تسـتطع أن تتحمل ماتت رحمهـا الله من فورها.. لا أعرف أين ذهب البكاء.. سيعلق الرأس على باب زويلة ثلاثة أيام.. ثم يرسـلونه إلى إسـلامبول.. ذهبت أدفن أمى وجسـد أخى القتيل.. وخـرج الناس من حولى حشـودا.. لا لم يكونوا مصدقين المماليك.. زاد هذا من قدرى وقدر إبراهيم أخى عندهم.. حاول جند المماليك أن يفرقوا الجمـع خوفا مـن القلاقل.. ولكن الناس أبوا إلا أن يمشـوا فى جنازة أخى.. التفوا من شـوارع أخرى ليعاودوا السير فى الجنازة من جديد.. كفى أن الرأس لن يدفن.. لا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها.. أى صبر كان عند السـيدة أسمـاء رضى الله عنها.. لا لم يكـن إبراهيم الأول..

ولم يكون الأخير بدأها الحسين رضى الله عنه.. وها هى الرأس يدفن فى المقام هذا.. أى فجر هذا.. ألا يوجد لنبى مقام فى أمته من كرامة.. يموت الشرفاء ليحيا السفهاء...

رجعت من الجنازة لأجلس عند باب زويلة عند الرأس.. قد رفع بسلاسل وعلق على الباب وكأنه زينة يتباهون به.. جلست على الأرض اإلى جوار الباب أقرأ من القرآن.. أى برد هذا على قلبى.. أهكذا موت السعداء.. كان لايزال يرسَم على وجهه الابتسام.. الحمد لله أنه رأى أمى قبل أن يرتحلا.. أو ربما أبى إلا أن يأخذها معه.. سبحان الله.. سبحان الله...

بينما أنا جالس إلى الباب مر الناس كثيرا منه ينظرون إلى الرأس فمنهم من يقول لا حول ولا قوة إلا بالله.. ومنهم من يرسم الصليب.. ومنهم من يقول إنه المسيح.. ومنهم من يقول السلام عليك يا حسين.. ومن يقف إلى جوارى باكيا ثم ينظر إلىَّ وينصرف دون حديث.. وكان البكاء قد أعجزه عن الكلام.. أو ربما يعتذر لأنه لم ينصره.. مات إبراهيم ولكن سيبقى ذكراه كما بقيت ذكرى أستاذه رحمهما الله...

بقيت على هذه الحال ثلاثة أيام.. جاء إبراهيم زوج فطيمة أكثر من مرة يرجونى أن أقوم معه.. ولكن كيف لى أن أترك رأس أخى؟.. أما كفى بعدا.. الجلوس إلى جواره سكن.. فى الليل يشعل الحرس النار.. فتبدو لى الرأس وكأنه يحدثنى.. يبتسم ويقول لا تخف علىَّ يا حسن أنا وأمك فى الجنة.. ومرة أخرى يقول.. الحمد لله ارتاحت نفسى...

جعلنـــى الحزن أفكر فى أشـــياء غريبة.. تســـاءلت كيف كان رأس الحســـين يوم أن مات.. كان شـــيخى يقول إن الرأس كان يقرأ القرآن.. فلما خشـــى يزيد من ذلك أمـــر بدفنها. بينما أنا فـــى غمرة تلك الفكرة سمعـــت صوت القـــرآن وخيل لى أنـــه رأس إبراهيم.. ثـــم نظرت حولى فوجـــدت أحد الحراس يقرأ.. بدا الخرف يأخذ برأســـى بعيدا.. غلبنى النـــوم ونمت مكانـــى.. لم يوقظنى غير ضوء الشـــمس.. وصوت الحرس يرفعـــون الرأس ليرســـلوه إلى إســـلامبول.. سمعت رجـــلا يقول لا حول ولا قوة إلا باللّه.. إنه مملوك ويبدو عليه أنه بك.. قمت مسرعا والتجأت إليـــه أبكى وأقول: بـــاللّه عليك دعنى أدفن الرأس مع الجســـد.. باللّه عليك.. وألححت فى طلبى هذا.. ولكنه نظر إلىَّ نظرة شـــفقة وقال ليس بيدى شىء يا شيخ.. ليس بيدى شىء...

كان هذا بداية المرض عندى.. أى إنسان يحتمل هذا العذاب.. وأى جسد.. دب المرض فى عضدى.. وقلت حركتى.. وشاخت قدماى على الجيئة والذهاب.. وصار بيت الزوق فارغا إلا منى والجارية حســـنى.. وبدأ عذاب الوحدة يقتلنى....

* * *

(١٧)

فى ليالى اللاحقة فرغت الحياة من كل شىء.. غير بعض من الذكر.. آثرت الاعتكاف فى البيت.. أشعر أننى ما عدت أستطيع أن أمكث فى الحانوت وحدى.. لا أحد معى فى بيت الزوق غير حسنى الجارية.. تخدمنى.. أشعر بالذنب نحو تلك البنية.. شعرت أنها إحدى بناتى.. كنت قد وعدتها بالزواج من قبل.. تذكرنى بذلك بين الحين والحين.. أو حتى تلمح إليه من بعيد.. فكرت كثيرا أن أعتقها.. ولكن من يخدمنى فى مثل هذه السن الكبيرة.. لا أود الإثقال على فطيمة.. كفى أن زوجها يرعى الحانوت فى غيبتى تلك.. أفكر فى أن أدع هذا الحانوت.. زهدت الدنيا فلم أعد أطلب منها شيئًا...

قرر شاكر وبعض من أصحاب الحوانيت أن يأتوا لزيارتى بين الحين والحين.. خاصة بعدما وثب على بك الكبير على حكم مصر واستفرد به....

وأوقف الدعاء للسلطان العثمانى.. بعدما أوقفوا الباشا وأنزلوه من القلعة.. لم ينته فيها من القتل والنفى.. نفى مئات من المماليك فى أركان كثيرة من مصر.. كان هذا مما استشرفه إبراهيم عندما قام بثورته ربما.. نعم قال لى إنه يرى المماليك راجعة إلى عهد السلطان لا ريب.. كان محقا فى ذلك.. لقد رأى ببصيرة العلم ما لا نراه...

وفى ليلة ممطرة وجدت الباب يطرق بشدة فى الليل.. ترى من بالباب فى تلك الساعة المتأخرة.. قمت لفتح الباب.. وجدت رجلا بدا

عليــه العجــز.. مهلهل الثياب يبدو عليه المرض.. رفعت شــعلة الضوء حتى أرى وجهه.. من هذا؟.. إنه حسونة..

– أدخلنى يا حسن..

– حسونة.. تفضل.. كيف حالك يا حسونة؟.. أين كنت كل هذا؟

– ذهبت إلى بيت أبى وجدته مغلقا وصد بقفل قديم.. لم أستطع فتحه..

– نعم.. لم يذهب إلى هناك أحد منذ ماتت أمك رحمها الله..

بدأ يجهش بالبكاء.. عندما ذكرت له موت أمه.. أصعدته إلى الغرفة بَّدل ملابســه.. وهدأ قليلا.. وجلس على السرير حتى يرتاح من سفره.. لم أكــن أريد أن أثقــل عليه.. تركته يرتــاح وينام وفى اليــوم التالى.. لم يســتيقظ إلا متأخرا جدا.. أعدت حســنى لنــا الفطور.. وبدأ يحكى قصته العجيبة.. منذ أن ذهب مع تلك المرأة إلى المنصورة...

– ألا تخبرنى أين كنت كل هذا الوقت؟

– لقد ضيعت نفســى يا حسن.. ضيعت عمرى ولم أفق إلا متأخرا.. بعدما ضيعت كل شىء.. حسبى الله ونعم الوكيل فيك يا نعيمة..

– قلت لك من قبل تلك المرأة لا تصلح أن تكون زوجة لك أبدا..

– ومتــى كنت أسمــع؟.. كفى أننى عصيت أبى وكنت ســببا فى موته كمدا..

– لا عليك الآن.. رحمه الله.. أخبرنى عن قصتك..

– وصلت إلى المنصورة.. مدينة جميلة.. لا أعرف ما سر السحر الذى كانت تملكه تلك المرأة على نفسى.. كانت لضحكتها الرقيعة الرنانة سحر

من نوع خاص.. حقا كنت أشعر أننى منجذب لها بأية حال.. بالرغم من سوء سريرتها فإنها كانت بالنسبة لى المرأة كما تجب أن تكون.. عملت فى بحر النيل أصطاد السمك.. كنت أغيب عنها أياما.. ثم أعود لأعطيها ما جنيته من المال.. فتأتى بالخمر والحشيش.. وتجلس واضعة قدميها أمامى.. هذا ما كان يأخذنى إلى عالم آخر من المجون والجنون.. عرفت عن النساء كثيرا.. لكن الأمر بالنسبة لتلك كان مخالفا.. كثيرا ما كنت أسمع الناس يهمسون لبعضهم ويشيرون إلىَّ.. لم أكن أعرف مقصدهم فى أول الأمر.. كنت غبيا.. سرعان ما تفهمت الأمر.. فى اليوم الذى عدت فيه مبكرا عن موعدى.. وجدت البيت قد جعل وكرا.. امتلأت الغرف بالنساء والرجال.. وعلت منه الضحكات.. عندما دخلت لم يقم أحد من مقامه.. بحثت عن تلك الفاجرة ..وجدتها تجلس وحولها الدخان يتصاعد من النرجيلة.. حاولت أن أردعها عن ذلك.. هددتنى بأن تأخذ المال منى وتدخلنى السجن بتهمة ذلك الوكر.. هالنى الأمر.. ليتنى قبلت بهذا السجن ولا أبقى بين فكى تلك الأفعى.. كنت لا أفيق من السكر حتى لا أعود فأرى حالى من جديد.. وظللت على هذه الحال.. حتى قررت فى يوم الهروب.. بعيدا عنها.. ركبت فى النهر حتى وصلت إلى القاهرة.. نزلت فى صحراء لا أعرف أين أذهب.. حتى قابلت بعض البدو.. مكثت معهم مدة من الزمن.. حتى هجم قطاع الطريق عليهم.. فهربت حتى وصلت إلى القاهرة.. ولم أجد غيرك ألجأ إليه...

– اسمع يا حسونة.. ابدأ حياتك من جديد.. أعلن توبتك إلى الله ولا ترجع أبدا إلى ما كنت فيه.. لم يبق من العمر بقدر ما ذهب منه..

– هذا ما نويته إن شاء الله.. و لن أجد غيرك يساعدنى فى الأمر.. وأنا الآن مريض أمرضنى الخمر فى كبدى..

كان هذا اليوم بدء حياة جديدة لحسونة.. هو أولى الناس بالحانوت الآن.. أما حسنى الجارية.. لم لا أصونها وأصونه وأزوجها له.. كان هذا ما فعلته.. رجع إلى بيت أبيه .. وإلى حانوت جده.. وأعتقت حسنى وتزوجها برضا منها.. أشعر وكأننى أسلم تلك الدنيا...

* * *

ما هذا الصوت الذى فى الخارج.. أسمع صوت امرأة تستنجد بى من خلف الباب.. إنها مارتا زوجة يوسف الحلاق..

– أهلا بك يا بنيتى.. ما الأمر؟

– يوسف يا شيخ حسن.. يلحق بى ليضربنى..

– ادخلى وأدخلى أولادك..

دخلت البيت مذعورة.. ولم تلبث إلا قليلا ووجدت الباب يطرق بشدة.. فتحت الباب فإذا به يوسف هذا.. رجل مفتول العضلات كبير الشارب ثقيل الشعر.. فى عينه بعض الحور.. يكبرها بسنوات طويلة.. حاولت أن أهدئه قليلا ولكن لا فائدة.. اشتد غضبى عليه وقد اجتمع الناس ودخلت بعض النساء يحمينها.. خجل من الجمع وانصرف.. ودخلت إلى مارتا أستوضح الأمر منها...

– ما الأمر يا بنيتى؟

– يضربنى يا شيخ كل يوم وأولادى.. ويبخل علينا فى كل شىء.. لم أعد أتحمله.. لا أريد أن أعود أبدا.. سأعود إلى ديارنا فى الصعيد.. لا تتركه يرجع يا شيخ.. أستحلفك بالله..

– اهدئى يا بنتى.. ويفعل الله الخير..

– تعلم يا شـيخ أن عندنا لا تقبل الكنيسـة بالطلاق أبدا.. ورجوت الأب سمعان أكثر من مرة.. ليعتقنى من هذا الجحيم.. فأبى..

– فى الغد سـتصير الأمور بالخير.. ابقى هنا مع أولادك.. وسأرسل فى طلب حسنى لتكون معك الليلة.. وسأبيت مع حسونة..

فى الغد انطلقت إلى الدير.. وقابلت الأب سمعان.. قد طعن فى السن فقد جاوز عمره مائة عام.. رحب بتلك الزيارة بشدة.. وتحدثنا عن بعض الذكريات.. وعن أبى رحمه الله.. وجدت الأمر ممهدا لأشـرح له وضع مارتا وأحكى له الأمر.. فرفض ذلك.. وقال: سأحدث يوسف فى الأمر وأؤدبـه.. و لكنـى قلت له إنه فعل من قبل ولم يسـتجب.. طلبت منه أن يكون هذا رجاء لى عنده.. وحاولت إقناعه باسـتحالة عيشها معه.. لم يجب فى حينها.. لكنه وعد ببحث الأمر...

ظلت مارتا ماكثة فى البيت تخشى حتى من الخروج فيضربها.. ثم وجـدت الأب سمعان.. وقد جاء إلىَّ وقال إنه عرض على يوسـف الأمر فقبله.. ووافق الأثاقفة على أمر الطلاق هذا...

لم أر سعادة قط كما رأيت فى وجه تلك المرأة عندما أخبرتها بالأمر.. نزلت على يدى تقبلها.. وتحمد الله على ذلك.. ثم ارتحلت إلى الصعيد مع أولادها...

* * *

فى ليلة وجدت الناس قد هرعوا إلى الشـوارع وكأن شـيئا عضالًا قد حدث.. خرجت من البيت أسأل الناس.. فقالوا إن حريقًا هائلًا قد وقع

فى الأزبكية.. حرق الكثير من المنازل العظام.. ولكن الحمد لله سلم أهل تلك البيوت.. ثم ما لبثوا أن عمروها.. والتجأ عندى منهم الشيخ خيرى العصار وأهله.. حتى أعاد بناء البيت...

فى ذلك الحين.. كنت أسمع بخبر على بك الكبير مع تلميذه محمد بك أبو الدهب.. كان عندى شغف بالسمع إلى تلك الأخبار.. أشعر وأننى أجد ثأر أخى أمام عينى يأخذ من على بك.. بالرغم من أن هذا الرجل أصلح فى البلاد فإنه كان عندى دوما مذموما.. وكل ما يحدث من صراع السلطان ليس بالجديد عند أهل مصر.. فقد عهدوه من قبل فى عصر سلاطين المماليك.. وعندما عرفت بقتله.. لم يكن عندى شىء من شماتة.. ولكن شعرت بأن أخى إبراهيم كان على حق.. هذا ما جعلنى أثق بأن اليوم الذى ستتفهم فيه الناس مقصده سيأتى لا محالة...

عندما انقلب محمد بك أبو الدهب على أستاذه.. كان هذا سوءًا على على بك الانكشارى.. الذى سلب كل ما يملك.. ونفى إلى الفيوم .. فى هذا اليوم رأيته للمرة الأخيرة.. ورأيت شويكار هانم.. فلقد جاءوا عندى إلى البيت لاجئين إلىَّ.. ما أعجب دول الأيام.. لا تزال صورته وهو يهددنى ويفزع أمى.. ويوم أتت شويكار هانم تطلب يد فطيمة.. أية عبرة بعد الذى صار لهم يعتدون بها.. بعد رحيلهم.. سمعت أن البك والهانم رجعا إلى إسلامبول .. وعاشا بقية حياتهما فى بيت بسيط فيها.. ما أعجب الأيام...

* * *

بعد ما استقر الأمر لمحمد بك أبو الدهب.. شرع فى بناء مسجده.. وما إن انتهى من بنايته.. حتى خرج إلى ديار الشام يفتحها.. فتحت

عليــه تلك الديار وكان مريضا جدا.. وما إن اســتقر له الأمر فيها حتى مــات.. فتنازع صحبته فى الأمر ثــم أجمعوا أمرهم أن يرتحلوا إلى مصر فعــادوا وبنــوا له قبرا ليــلا.. وفى الصباح مشــى فى جنازتــه العلماء والأعيان.. وكانت تلك هى نهاية من بغى على أستاذه...

بعد وفاة محمد بك.. نشــب فى الســوق شجار عظيم بين الفتوات.. فمنهم من كان يحب محمد بك ومنهم من قال إنه كان خائنا لأستاذه.. أيــة بلاهة لهؤلاء الرجــال! تطور الأمر إلى معركة كبــيرة.. وصلت إلى الســلاح الأبيض.. جاء إلىَّ شاكر فى محاولة علنى أنهى هذا الصراع إلى خير فالفتوات يعرفوننى ويقدرون مقامى.. لكن إن نشبت فتنة يا ولدى.. فلا أحد يســمع.. وقفت فى قلب هذا الصراع الدامى.. أحدثهم.. أيها النــاس أفيقوا.. أيا ما كان أمر الرجل فقد مات.. أيها الناس لا تنســوا اللّه.. دماؤكــم عليكم حــرام.. ولكن لم يهدأ الأمر قــط.. ويموت أبرياء بســبب بعض من ســفاهة الفتوات.. ضقت من كل هذا.. وخطر فى بالى أن أغادر ديار مصر.. لقد ضقت من العيش فيها.. كرهت السباب ومللت منه.. وشــكل الدم بدا فى شوارع القاهرة وسوق الغورية امتلأ بالجثث.. لم يعــد الأمر على ما كان عليه من اختــلاف فى الرأى.. بل بدا عنف وحرب بلا ســبب.. فى الليل قررت أن أرتحل من هذا البلد إلى الأبد.. ربما أذهب عند أبناء عمومتى فى الشــام.. عند فيروز ابنتى.. كم أشتاق إليهــا.. أعددت نفســى لذلك.. فــى الصباح عاد الصــراع من جديد.. الأصــوات تعلو والصراخ لا يهدأ.. أى يوم هــذا امتلأ بالدم.. بدا صراع للدم فقط.. فلا عدت أعرف من يقتل من؟.. ولم؟...

خرجت من البيت.. قابلنى إبراهيم محاولا أن يمنعنى من الرحيل.. رفضت الأمر.. لا.. لن أعود لتلك البلاد كفى ما لاقيت فيها من الدماء والأحزان.. كان هناك شىء آخر يدفعنى للخروج لا أعرفه.. امتلاء قلبى بالحزن.. عندما رأيت طفلة صغيرة جلست خلف حجر تبكى.. أمسكت بها وجعلت أمسح على رأسها حتى هدأت ثم جعلت أبحث عن أمها.. فوجدتها ملقاة على الأرض والدم يخرج من فمها.. اللعنة عليكم.. أين المماليك يكفونكم عن تلك الدماء؟.. أين أولى الأمر؟.. لا حياة لمن تنادى.. لك الله أيتها المسكينة.. قررت أن أخذها معى...

مشيت بين الرمم حتى وصلت إلى باب الفتوح.. وأخذت أنظر إلى بلاد غريبة.. لم تعد التى أعرفها.. رائحة الدم فى كل مكان.. وبالرغم من هذا أخذت الذكريات تجوب رأسى.. عندما كنت صغيرا.. مرت أمام عينى أحداث الحياة كلها التى عشتها.. فرحا وحزنا بكاء وضحكا.. حبا وكرها.. كل شىء.. وتذكرت وصية أبى يوم قال لا تخرج.. لا تترك بلادا عشت فيها.. ولكن تلك البلاد بدت غريبة عنى كما صرت غريبا عنها.. وزعت نظراتى بين النواحى.. صدرى يضيق.. أتنفس بصعوبة.. أسمع دقات قلبى صوتها يرتفع حتى صارت فى أذنى كدقات طبول الحرب.. نظرت إلى تلك المسكينة التى فى يدى.. ترى أى مصير تلاقيه.. شعرت أنها النهاية.. ثم رأيت أبى وقد ارتدى لباس الحج.. تذكرت عندما كنت صغيرا فيأخذنى من يدى حتى نذهب لمولد السيدة زينب.. قال:

– تعال يا حسن..

– أبى..
– هيا..
أومأ إلىَّ وأمسكت يده.. ثم انتهى كل شىء.. انتهى.. كان ذلك فى ١١٩٠ من الهجرة النبوية الشريفة.. مت عن عمر اثنين وسبعين عاما.. وانتهى بى الأمر إلى هذا المقام الذى رأيت...

* * *

كانت تلك حياتى يا ولدى وكانت تلك سيرتى وهى الآن أمانتك.. فاحكم أنت فيها.. (سكت قليلا متأملا أو حاول أن يسمع شيئا قادمًا من بعيد ثم قال: هذا صوت الكروان.. جاء وقت الرحيل.. أستودعك اللّه.. لا تنس الأمانة.. أخبر الناس عنى إن الحياة لا تستحق كل هذا الاقتتال.. فمهما طالت هى إلى زوال.. أخبرهم أن صاحب المقام هذا رجل أظلته الهموم.. فكان صبره عليها باب الخروج..

خرج من باب الغرفة واختفى.. فتحت الباب أبحث عنه.. فلا أجده.. على أية حال.. ها قد عرفت قصته.. رحمه اللّه.. انتهت قصة الزوق الذى لم يخرج من مصر بل مات على أبوابها كمدا.. وربما كان موته هذا سر وقف هذا الصراع.. وحفظ الناس له ذلك.. فجعلوا منه وليا.. أو ربما حفظوا لأخيه إبراهيم الإعجاب فكان هذا بينهم بمقام الولى.. انتهى الأمر على كل حال.. أما أنا فسأعود إلى النوم.. لأعود إلى ألم حياتى من جديد...

تمت